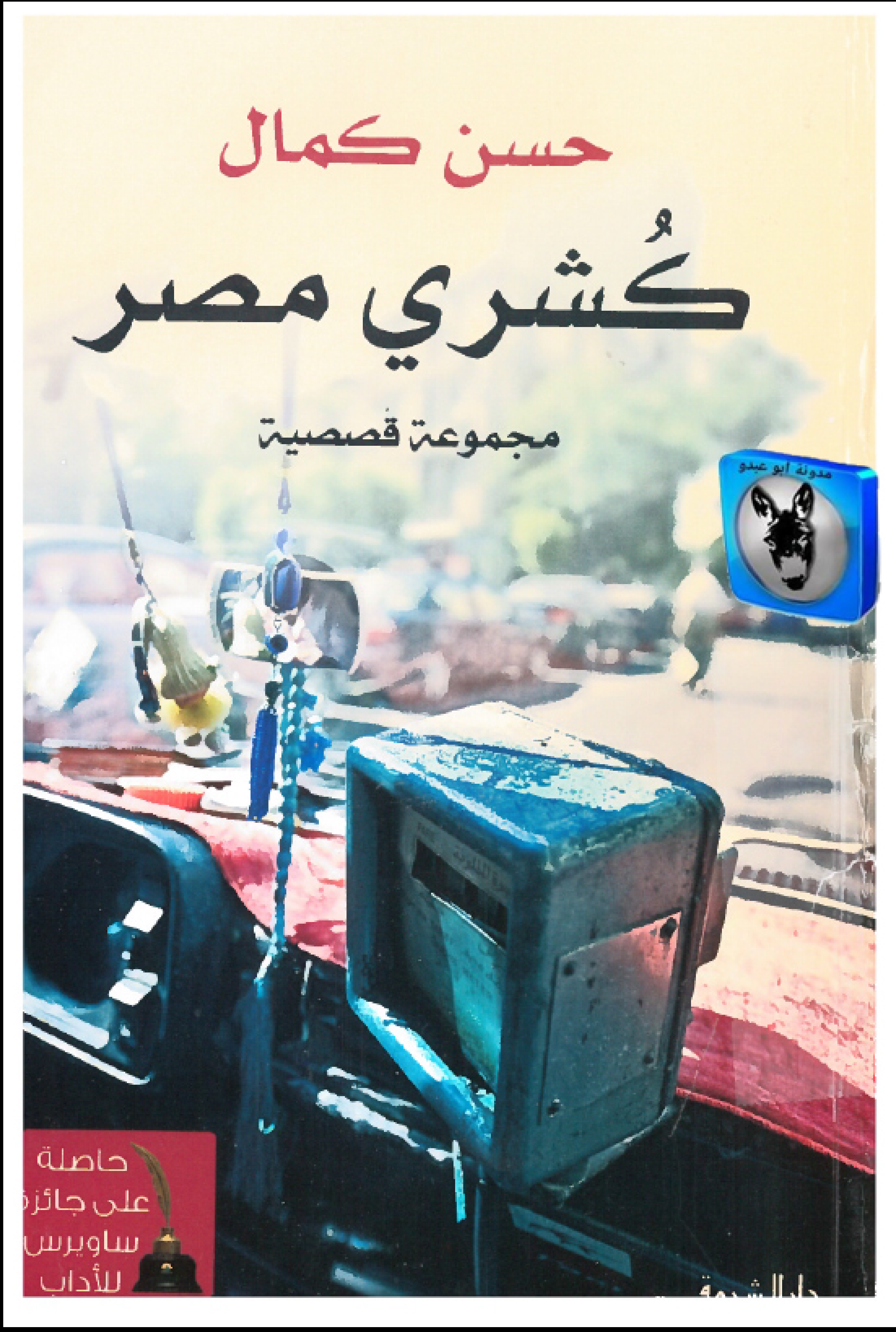


حسن كمال
كُشري مصر
مجموعة قصصية
مدونة ابو عبدو
حاصلة على جائزة ساويرس للآداب

كشري مصر

كُشـري مصر

حسن كمال

تصميم الغلاف: أحمد مراد

الطبعـة الأولى ٢٠٠٨

طبعـة دار الشروق الأولى: ٢٠١٤

تصنيف الكتاب:

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ٣٣٣٠/ ٢٠١٤
ISBN 978-977-09-3288-9

حسن كمال

كشري مصر

دار الشروق



إهداء

إلى أبي.. الذي علمني حب الأدب في كل صوره.

إلى أمي.. التي علمتني أن قدرات البشر بلا حدود.

إلى إخوتي.. الذين وضع كل منهم لبنة في بنائي.

شكرًا وعرفانًا..

زوجتي وولدي

أنتما مداد كلماتي..

فأنا أكتب من قلب يستمد الدفء منكما.

أهديكما قصصي وأيامي وأحلامي

وعشقًا.. بلا حدود.

المحتويات

مقدمــة

سنوات طويلة وكلماتي تتصارع مع انشغالي، كلاهما يحاول أن يسيطر على عقلي ويستعبده لخدمته طوال الوقت. أنهيت دراستي، استقر عملي، هدأ السعي والانشغال، فانتصرت الكلمات وعدت أكتب مرة أخرى بعد سنوات من التوقف.

والواقع أن طقوسي في الكتابة اختلفت تمامًا عن طفولتي وباكر صباي... في الماضي كنت أدخل إلى غرفتي، أغمض عينيَّ، أستمع إلى موسيقى هادئة لأحلق بقلبي وعقلي في عالم الخيال.

تغيرت كما تغير كل شيء من حولي. فعندما أشرع في الكتابة أمشي في الشوارع، أفتح عينيَّ جيدًا لأرى البشر. أسمع كلامهم وضحكهم وبكاءهم؛ لأستقي حكاياتي من هموم واقع أراه أصبح يفوق الخيال. وهأنا أسوقها إليك ـ عزيزي القارئ ـ لترى شخوصًا وأحداثًا عاشت في رأسي أيامًا طويلة حتى نقلتها إلى أوراقي.

وما أكتبه فمن أجل القراءة، لا من أجل الكتابة. لست جشعًا، قارئ واحد يرضى عن إنتاجي ويحرر كلماتي من أسر الأدراج يكفيني.

في أثناء كتابتي.. يتراءى أمام ناظري أبي الذي شارف على الثمانين، وولدي الذي لم يتجاوز عامه الثاني، وأجيال أنا منها تُتهم بالجهل والضحالة. أحاول أن أخاطب الجميع، وفي قلبي صورة وطن أحبه وأحلم له بازدهار يستحقه، فأنا أراه مظلومًا بمن يعيشون فيه.. وممن يعيشون فيه.

ختامًا.. لا يفوتني وأنا أقدم أولى مجموعاتي، أن أتقدم بخالص شكري وتقديري للكاتب الأستاذ محمود النواصرة على مساندته، وأخذه بيدي في كل خطواتي على طريق كتابة القصة القصيرة.. فهو أول من منحني الثقة في قلمي بعد عائلتي وأصدقائي المقربين، وللشاعر المهندس ياسر يس على مساهمته في المراجعة اللغوية، ولجميع أعضاء نادي القصة بنادي الصيد.

أما أنت أيها القارئ العزيز، فلك مني سلام صديق يشاطرك جزءًا من همومه وأحلامه ومشاعره، حتى وإن كان ذلك.. على صفحات كتاب.

حسن كمال

الغرف المغلقة

ـ من أنتِ؟

ـ بل من أنتَ؟

كتبتها بأصابعها الرقيقة وهي تبتسم في ترقب.

اتسعت الابتسامة وهي تقرأ الرد على شاشة (الكمبيوتر).

ـ مصري، مهندس، القاهرة، وأنت؟

ـ قاهرية مثلك.

ـ السن؟

ترددت قليلًا، أضافت إلى عمرها عشر سنوات دفعة واحدة:

ـ سبعة وعشرون عامًا.

ـ أنا أكبر منك بعشرة أعوام، كثير؟

تضحك بصوت عالٍ وهي تكتب:

ـ لا يهم، فأنا لا أنوي الزواج من غرف المحادثة.

يأتيها الرد على هيئة وجه ضاحك.

- لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

- كيف عرفت؟!

ابتسمت في سخرية:

- الرجال المتزوجون لا يظهرون بعد منتصف الليل. فقط في مواعيد العمل الرسمية. عشر ساعات يوميًا على هذا الجهاز اللعين جعلتني خبيرة. الآن أجب.

- حاولت الزواج، لكني لم أوفق. وأنتِ؟

- آنسة.. أنتظر ابن الحلال.

- حدثيني عن نفسك.

تتنهد. ليس لديها الكثير لتقوله عن نفسها. حياتها خاوية من كل شيء. تتردد كثيرًا، لا يستعجلها، تبتسم هامسة: إنه صبور! راقها ذلك، بدأت تتخيله لتختار له ما قد يوافقه من أوصاف.

تسمع صوت باب غرفة أبيها يفتح، خطواته التي تعرفها جيدًا تقترب. تفصل الكهرباء عن الجهاز. تقفز إلى سريرها في لحظات وتختفي تحت الغطاء؛ فهي تعلم جيدًا دستور الأب: ريفي النشأة. الاحتشام، المذاكرة، النوم مبكرًا، وأن يعرف كل ما تفعله.. خارج المنزل.

يلقي عليها نظرة، وأخرى على الكتب المفتوحة على مكتبها. يطفئ النور ويغلق الباب في هدوء.

تعود كما كانت في ثوانٍ.

- آسفة. انقطع التيار.

تحدثه عن نفسها. دراستها أيام الكلية، جدتها التي تعيش معها، أبويْها اللذيْن يعملان في الخليج ويرسلان إليها بالمال مما جعلها تزهد في العمل. تنظر إلى سلسلة الأكاذيب التي كتبتها مبتسمة في إعجاب، وتضغط على زر الإرسال.

في الصباح، كانت تحكي لزميلاتها كل شيء عنه، لم تجد غضاضة في أن تنقص بعضًا من سنوات عمره. وصفت لهن صورته كما تتخيلها، كلهن رأينه جذابًا، حتى هي.

تعددت الحوارات بينهما. تكاد تكون كل ليلة. أصبحت تكره الأمسيَّات التي كانت تتمناها قبل ذلك. عندما تعود أمها مبكرة لأنها أنهت العيادة ولا توجد مواعيد ولادات ولا عمليات، فتتعشيان، وتجلسان معًا لبعض الوقت. أصبحت تترقب دخول الأم إلى حجرتها، أو خروج أبيها من غرفته. يتجادلان، يتشاجران، أو يدخلان إلى إحدى الغرف معًا على غير المعتاد.

تتحدث معه في كل شيء، وعن أي شيء. يسمعها مهما أطالت. يسألها عن آراء تتعجب من قدرتها على إبدائها. أدهشها أنه بمرور الأيام لم يحدثها قط عن الجنس، أو يطلب منها أوصافًا طالما طلبت منها قبل ذلك. تتمنى أن يداعب يومًا أحاسيس الأنثى بداخلها. لكنه لم يفعل، فزاد احترامها له.

فضولها يتزايد. لم تعد تستطيع كتمانه.

ـ أريد أن أراك.

كتبتها بأصابع مرتعشة، وضربات قلبها تتسارع.

لم تصدق رده السريع:

ـ وأنا أيضًا.

في الميعاد المنتظر. ارتدت العلامات المميزة. المعطف الأسود، الكوفية الحمراء والقبعة الصوفية السوداء. قررت أن تخبره بالحقيقة، تعلم أنه سيغفر لها، فلا بد من أنه أدمنها كما أدمنته. مع ذلك، تسللت إلى غرفة الأم لتضع بعض المساحيق والألوان لتبدو أكبر من سنها قليلًا. لا تريده أن يراها طفلة.

دقت على باب أبيها مستأذنة للذهاب إلى أحد دروس المراجعة عند صديقتها التي تعرف جيدًا ما تقوله إذا سُئلت عنها. تتمنى أن يعطيها الموافقة من خلف الباب كالمعتاد.

يجيئها صوته من الداخل صارمًا:

ـ انتظري.سأوصلك في طريقي.

تعترض لأنها تأخرت. ينخلع قلبها لصوت الباب الذي يفتح، تشيح بوجهها بعيدًا لكي لا يرى ما عليه.

يأتيها صوته من ورائها:

ـ أنا جاهز.

تلتفت إليه في قلق، تتعلق عيناه بوجهها الملون. يقطب حاجبيه ويهم بقول شيء ما. توقفه عيناها اللتان اتسعتا محملقة في معطفه الأسود، قبعته الصوفية وكوفيته الحمراء اللتين لم ترهما من قبل. تلقي كوفيتها تحت قدميه فيتسمر مكانه. يدخل كل منهما إلى غرفته.. مغلقًا الباب.

محدقون بلا عيون

جلسوا متجاورين. كل يحدق أمامه في صمت، لا يلتفت أي منهم للآخر. الصفرة بدرجاتها تحيطهم من كل جهة فتزيد كآبتهم.

التفت إلى الرابض على يمينه ببطء، تيبست رقبته فحركها يمينًا ويسارًا وهو يتنهد:

ـ آن الأوان لنخرج من هنا؛ فالوضع أصبح لا يطاق.

ـ تريد الهرب بعد كل هذه السنين؟

ـ بقاؤنا على هذه الحال المهينة لا يليق بنا. أنسيتَ من نحن؟ كنا نأمر فنطاع، الكل يهابنا. حتى عندما جاءوا بنا إلى هنا، كانوا ينظرون إلينا في محبسنا على أننا عظماء.

ـ سنجد أنفسنا غرباء في الخارج.

ـ الخارج أو الداخل ليس ما يعنيني. أريد الهيبة، الاحترام. لم أعد أطيق نظرات الناس وتعليقاتهم السخيفة. يسخرون منا ومن هذا السجن الذي نقبع فيه، لم نعد نرى نظرات التقدير في العيون. أكاد أجن عندما أسمع كلامهم المليء بالحسرة وخيبة الأمل أحيانًا، وبالسخرية والتهكم أحيانًا أخرى. ظننت أحدًا منهم

سيتحرك من أجلنا، يطالب بإطلاق سراحنا، أو حتى بنقلنا من هنا إلى مكان أفضل.

ـ أحلامي أبسط من ذلك. كل ما أريده بعض الألوان من حولي لترفع عني شيئًا من الهموم، لكني أعذرهم، حالهم ليس أفضل من حالنا كثيرًا. الحياة بالخارج ـ يا صديقي ـ مربوطة بحال هذا المكان.

ـ إياك أن تتحسر أنت أيضًا، يكفينا حسراتهم، أتذكر أيام كنا طلقاء؟ كنا نفعل كل شيء. لا أدري من أين جاءوا بهذا الضعف.

يمد رأسه إلى الأمام مخاطبًا القابع على الطرف الآخر.

ـ أنت أيها الأحمق، لماذا لا تشاركنا الحديث؟

ابتسم في استهزاء دون أن يجيبه.

أجابه الثاني:

ـ لن يجيبك، فهو يعلم أن رأس شقيقه طار عندما حاول الهرب مثلك.

ـ تركوا جسده إلى جوارنا عبرة لنا، لكني لن أخاف. سأفعلها.

تلفت يمينًا ويسارًا في حيرة. لمعت عيناه وهو يهمس:

ـ وجدتها، سأتسلل إلى المسجد الموجود في الجهة المقابلة، أختبئ فيه بضعة أيام. اختفائي سيفزعهم، سيبحثون عني في الخارج لكنهم لن يجدوني، عندما ييأسون؛ أنطلق هاربًا، وقتها يدركون حماقتهم عندما قللوا من قيمتنا.

ـ وإذا أمسكوا بك؟

ـ أكون لقنتهم درسًا لا بأس به في أننا ما زلنا قادرين على الفرار.

تسلل متسلقًا في خفة لا تتناسب مع سنوات عمره، وصل إلى الحافة، ثم قفز.

انطلق جاريًا فوق السلم الضخم، دخل المسجد في اضطراب، اختبأ في أحد أركانه، اندهش عندما وجده خاليًا تمامًا، غمغم في تعجب: حتى المسجد هنا أصبح مهجورًا! ظل مكانه لساعات لا يعرف عددها. قرر أن يخاطر، تسلق إلى المئذنة حيث قبع في سكون.

أخفض رأسه قليلًا عندما رأى هاتيْن العينين تنظران إلى المسجد، دق قلبه بعنف عندما رآه ينظر إلى الجهة الأخرى حيث مكانه الخالي في تشكك.

سمع صوتًا يسأل الناظر في سخرية:

ـ لماذا تحملق هكذا كأنك تراه لأول مرة؟

ـ هناك خطأ ما.

يشير إلى المكان الفارغ بإصبعه.

ـ إنهم ثلاثة فقط. أين ذهب الرابع؟

ـ ليذهب الأربعة أينما يشاءون؛ فلن نخسر كثيرًا.

تتعالى الضحكات الساخرة، يعض على شفتيه في حزن، كان يظن أن فراره سيكون زلزالًا يغير كل شيء، عندما فكر فيه، خشي ألا يلاحظوه في غفواتهم التي لا تنتهي، أما أن يتجاهلوه ساخرين، فصفعة لم تكن في حسبانه.

يعود إلى مكانه مجرجرًا قدميه، شعوره بالهوان جعله يشعر لأول مرة أنه عجوز، يدير رأسه بين أشقائه، دموع متحجرة في عيون رفيقه، الابتسامة الساخرة ما تزال على شفتي الأخ. يحدق في الرأس المقطوع بأسى، يمسك بحجر صغير ليخط إلى جوارهم بضع كلمات، ثم يجلس في مكانه واضعًا يديه على فخذيه، محدقًا في استسلام.

من يومها توجد إلى جوارهم لوحة صغيرة مكتوب عليها:

ـ أزيلونا من هذا المكان فهو لا يليق بنا.

يراها بوضوح كل من يحدق في الجنيه المصري، وإن لم يلتفت إليها أحد؛ فهي مكتوبة بالهيروغليفية.

الهيكل

وقف أمام هيكله صامتًا ينتظر الجواب.

كان فخورًا بنفسه وهو يدخل الكلية للمرة الأولى، سعادته لا توصف.. فتفوقه أول مكافأة لأمه على السنوات التي جاهدت فيها من أجله هو وأخيه الصغير. تمالكت نفسها سريعًا بعد وفاة الأب المفاجئة، قررت أن تهبهما نفسها.

جاره الذي يسبقه بعام واحد اصطحبه إلى الكلية، شرح له ما ينبغي عليه شراؤه، أوضح له أن أهم شيء أن يسارع إلى شراء الهيكل العظمي قبل أن ينفد الجيد منها، ترتسم على شفتيه ابتسامة هادئة. طالما تخيل نفسه يذاكر ممسكًا بالجمجمة.

اندهش عندما أخبره أن سعر الهيكل البلاستيكي يتجاوز ضعف الآدمي، أردف بأن الآدمي أفضل. فالعلامات واضحة عليه، أحجامه مختلفة ومن السهل الفصال فيه.

ـ أذكر أم أنثي؟

جاء صوت عامل المشرحة أجشَّ، نظر حلمي إليه متعجبًا وهو يتساءل عما إذا كانت وظائف البشر تترك آثارها على الوجوه،

تفحصه مرة أخرى فهز رأسه مؤكدًا أن هذا الرجل يحمل الكثير من برودة الموت على وجهه المليء بالتجاعيد.

نصحه الصديق بشراء هيكل رجل، استطاعا بقليل من المجهود أن يحصلا عليه بنصف ما طلب، غاب العامل قليلًا ثم عاد حاملًا كيسين أسودين من أكياس القمامة. فتحهما الصديق وبدأ في جرد المحتويات، مقسمًا العظام إلى أكوام مختلفة؛ الفقرات، الضلوع، اليدين، والقدمين. يعد مكونات كل كوم ليتأكد من اكتماله:

ـ ينقصنا ضلعان.

ألقى العامل نظرة سريعة، غاب قليلًا وعاد بضلعين حجمهما أصغر من الباقين. اعترض حلمي فأكد له الصديق أنها لن تفرق كثيرًا.

ـ كنت أظن أني سأحصل على هيكل قائم كالموجود في المشرحة. يضحك في سخرية، موضحًا له أنه لم يَعُد هناك ما يربط العظام ببعضها بعد الموت، وأن الهياكل التي يراها تُثَبَّتُ أجزاؤها بأسلاك رفيعة؛ مما يستغرق وقتًا طويلًا ويحتاج إلى خبير:

ـ ذلك لن يفيدك؛ فالمذاكرة تتم على عظام منفصلة.

عاد حلمي إلى بيته سعيدًا، أخرج الجمجمة، مسحها بقطعة قماش نظيفة، وضعها على مكتبه. تفحصها في اهتمام، دق قلبه في اضطراب عندما رأى على أحد الضروس آثار حشو قديم، هذه الجمجمة كانت لإنسان تألم من أضراسه يومًا؛ فحاول أن يرعاها.

ـ من أين يأتون بالهياكل؟

جاءه رد صديقه في الهاتف:

ـ يدعون أنها من جثث بلا هوية، لكن هؤلاء أيضًا يموتون لحمًا وأحشاء.

ـ ماذا تعني؟

ـ هل سمعت عن هيكل عظمي يرقد بلا هوية على جانب الطريق؟ لا بد أنهم يسرقونها من المقابر، يعرفون متى يفتحونها ليجدوا العظام جاهزة، بعض التنظيف والدهانات، وبالتوفيق إن شاء الله يا دكتور.

دخل إلى غرفته مضطربًا. تعجب عندما وجد أخاه الصغير يحمل الجمجمة بين يديه، نهره وأخذها منه في غضب.

أجاب عن سواله بأنها رأس إنسان مات منذ زمن، وأن هذا هو ما يوجد تحت لحمنا.

ـ أتعني أن أبي يبدو هكذا الآن؟

جاءه سؤال أخيه مباغتًا، لم يستطع أن ينطقها، فاجأه الصغير بمسحة حانية على ما كان رأسًا كاملًا يومًا ما. بكى عندما جره من يده في عنف ليغسل يديه، ثم أغلق الباب بعد أن أمره بالابتعاد عن غرفته تمامًا.

جلس أمام الجمجمة مضطربًا، يحدق فيها وما قاله الصغير يرن في أذنه. ابتلع ريقه في قلق، هز رأسه رافضًا الفكرة التي تسللت إلى عقله موسوسة بأن هذا الرأس قد يكون.. لوالده. قام من مكانه فزعًا، يقلبها باحثًا عن أي آثار تدل على شيء يريحه. أخرج باقي العظام:

ـ لقد كان طويلًا مثل أبي:

في اليوم التالي اصطحبه صديقه إلى المشرحة مرة أخرى، طلب منه أن يساعده ليقيم هيكله، عندما أصر، وافقه على مضض.

الأسلاك التي كان العامل يغرسها في العظام بعد ثقبها كانت تؤلمه كما لو كانت تخترقه هو. استغرق الأمر طيلة اليوم، لفه في الملاءة التي أحضرها معه، عاد إلى منزله سعيدًا.

وقف أمامه في خشوع لدقائق طويلة، يضايقه كثيرًا مكان الضلعين الصغيرين، اقترب منه هامسًا:

ـ هل أنت أبي؟ بدأ يحكي له عن أحواله منذ سنوات، ينتبه ضاحكًا على نفسه في خجل، ثم يعود ليواصل حكاياته. فزع عندما فتحت أمه الباب فجأة:

ـ مع من تتحدث يا حلمي؟

يخبرها أنها مكالمة في المحمول. تنظر إلى الهيكل، تفزع لأول وهلة، يتحول فزعها سريعًا إلى تفهم وفخر بطبيبها الصغير، يعاجلها بسؤاله:

ـ هل يمكن أن يكون هذا أبي؟

تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، تأمره بقراءة القرآن وتغادر وهي تحوقل.

عندما تكررت حواراته مع هيكله، الصور القديمة التي بدأ يخرجها ويتفحصها باستمرار. بدأ القلق يتسلل إليها، أتت له بشيخ ليعالجه، أخبرها أنه ممسوس. نصحها بالتخلص من الهيكل وبقراءة آية الكرسي على رأس ولدها لأنه لن يستطيع قراءتها. ابتسم في تحدٍّ، قرأها بصوته الرخيم مرات عديدة، هز الشيخ رأسه متفهمًا:

ـ إنه جني مُسلم.

هب فيه غاضبًا، تعاونا على صرفه بعد أن اعتذرت لولدها في خجل.

ـ لست مجنونًا ولا ممسوسًا، أظنه أبي.

تعارضه في إشفاق، تتأمله معه لتكذب ظنه. لا تجد ما ينفي ولا ما يؤكد. يستشهد بألفة بين الصغير والهيكل، تشعر بالفكرة تتسلل إلى داخلها، ترجوه باكية:

ـ كفي يا ولدي، حرام عليك.

دموعها آلمته، (قَبَّلها)، دخل إلى غرفته ليشكو له عدم تفهمها، يلقى نظرة متأنية، تلمع عيناه ببريق غامض، يلفه في الملاءة، يحمله خارجًا.

يدخل على جدته العجوز، تهز رأسها مبتسمة في حنان وفهم، تخرج من فمها بعض التمتمات القلقة، وهي تنظر إلى الهيكل المغطى:

ـ أهذا ما أغضبت أمك لأجله؟

يحتضنها في حب، يقفز سريعًا ليكشف عنه غطاءه:

ـ هل هذا أبي يا جدتي؟

تنظر إليه في دهشة:

ـ ليس هذا ولدي بالتأكيد!

ـ أنتِ لم تنظري إليه.

تأخذه في حضنها، تقبله:

ـ ولدي كان أسود الشعر، أبيض البشرة، طيب القلب، حلو اللسان.. هل تجد شيئًا منه؟

ـ قد تكون عظامه.

ـ لكنها ليست هو.

ـ هذا ما يبقى.

تهز رأسها نافية وابتسامتها الحانية تتسع:

ـ بقيت منه ذكرى وحب وأبناء بقلوب بيضاء رقيقة.

تدق الأرض بعصاها في حزم متابعةً:

ـ أما هذا فمكانه هناك. أدفنه يا ولدي فراحته في دفنه.

ـ أنا اشتريته.

تجيبه في غضب:

ـ اشتريت ممن لا يملك؟ اعتقه، فهو ابن امرأة مثلي، تريحها عودته إلى التراب.

صباح اليوم التالي، خرج حلمي وأمه من مقابر الأسرة بعد أن أشرفا على دفنه، ودعه بدموع غزيرة ملؤها الاعتذار. بعدها ذهب لشراء الهيكل البلاستيكي، متيقنًا أنه حتى وإن كان باهظ الثمن، فهو أرخص كثيرًا.. من بقايا البشر.

خروف العيد

الرائحة تزكم أنفي.

سامحها الله زوجتي، فقد أصدرت هذا العام أمرًا جديدًا، أن نذبح الخروف على غير العادة هنا، في منزلنا.

في الأعوام السابقة، كان الذبح يتم عند أبي الذي يسكن في طابق علوي، فوقه سطح رحب، نترك فوقه الخراف بضعة أيام، ثم نحوله إلى مجزر صباح يوم العيد، في النهاية، يأخذ كل منا أنا وأخوتي نصيبه من اللحم مقسمًا في أكياس صغيرة، أما أنصبة الفقراء فتحول مباشرة إلى دار الأيتام الكبيرة الملاصقة لمنزله.

كان الأمر مريحًا؛ لذلك اعترضت عندما طلبت مني زوجتي أن أحضر الخروف، لا يوجد في بيتنا مكان يسمح بذلك. الحل كان جاهزًا عندها، نربطه أمام الشقة كما تفعل أختها كل عام. رفضت بإصرار، أقنعتني بدموعها ورغبتها في أن نضحي في بيتنا مثل باقي الناس من جهة، وبشوقها لقضاء صباح العيد معي من جهة أخرى.

عندما كنا نشتري الأضاحي أخبرت أبي أنني سآخذه، أخشى غضبه من قطعي لعادة أخرى من عادات الأسرة. لم تبدُ عليه

المفاجأة، نظر إليَّ متفهمًا، ابتسم في استسلام، ثم همس: خروفها، وهي حرة فيه!

استقر أمام باب الشقة. لأول مرة أعرف أعباءه؛ طعامًا وشرابًا، فضلات لا تنتهي على مدار اليوم. كلفت حارس العقار بإزالتها كل بضع ساعات. وافق ممتعضًا وهو ينظر إلى قيمة الورقة المالية التي أعطيتها له.

سيبقى هذا الوضع لثلاثة أيام كاملة. استياء الجيران عالجته المأمأة الصادرة من بعض الأدوار الأخرى، إلى جانب الجملة السحرية التي كنت أقولها عندما ألقاهم كاسيًا وجهي بابتسامة مصطنعة: كل عام وأنتم بخير.

في داخلي، أتمنى أن يعترض أحدهم بإيجابية، فأنا أيضًا متضرر من الرائحة إلى أقصى حد.

الشيء الوحيد الذي أسعدني، فرحة وحيدي به من أول ساعة. وقف خلفي ينظر إليه في تربص.. اقترب منه ملقيًا أمامه بعض أعواد البرسيم، أكلها ثم نظر إليه منتظرًا المزيد، ابتسم في فخر واعتبر نفسه مسئولًا عنه من تلك اللحظة، يعود من مدرسته الابتدائية التي يدرس في أول صفوفها، ينظر في تغذيته، يتعالى صوته الرفيع ليطالبني بشراء المزيد من الغذاء أو لمساعدته في تغيير الماء، أبتسم في مرح عندما أسمعه من خلف الباب يتحدث معه عن بعض المشاكل الصغيرة بينه وبين زملائه الذين يحددهم له بالاسم.

ليلة العيد، دخل ولدي علينا بعد أن أنهى اجتماعه مع صديقه الجديد. جلس صامتًا إلى جواري، ارتفع صوته فجأة:

ـ هل ستذبحونه غدًا؟

فاجأنا سؤاله، كان في سكوتنا وتحديقنا جواب كافٍ له ليقفز إلى حضن أمه باكيًا:

ـ أخبري أبي ألا يذبحه. لقد أصبح صديقي.

أصابتني دموعه ونحيبه ونظرات أمه بالذهول. تعاتبني على شيء لا أعرفه. ظل يبكي في حضنها إلى أن وعدته أن تتصرف، عادت بعد أن وضعته في سريره.

ـ أخطأنا في إحضاره إلى هنا. تعترف زوجتي وهي تهز رأسها في اقتناع، تستطرد:

ـ لن نسبب له عقدة نفسية إلى الأبد.

تشرح لي خطورة ذلك على الولد.. نظريات تربية لا أعرفها. يبقى عندي سؤال واحد: ما الذي سنفعله حلًّا لهذه المشكلة؟

اكتفيت بإخبار أبي أنني لم أستطع أن أذبح خروفي بعيدًا عنه وعن إخوتي، تكفلت سعادته بإخماد استفساراته. كنت واثقًا أنه لن يلاحظ أن هذا خروفٌ آخر، لا سيما أنني وصلت عنده قبل صلاة الفجر بلحظات بعد أن اكتشفت أن شراء الخراف ليلة العيد يكلف من الوقت والمال أضعافًا مضاعفة.

بانتهاء الأمر عدت لتنفيذ ما تبقى من خطة زوجتي التي كانت تقتضي نقل الخروف، فالجيران لن يحتملوه بعد العيد، كما أننا نريد أن ينساه الولد شيئًا فشيئًا، ثم نذبحه؛ فاللحم يؤكل بعد العيد أيضًا.. قالتها بابتسامة جذابة.

اتفقت مع العامل المشرف على ساحة الانتظار المجاورة. وافق مقابل مبلغ يقارب ما أدفعه له؛ من أجل سيارتي على ألا تزيد المدة على أسبوعين.

أثناء ما تبقى من إجازة العيد، كان ولدي يمضي وقتًا طويلًا معه. يحكي لأصدقائه عن قصته معنا إلى أن أنقذه، يدعو بعضًا منهم لرؤية الخروف الذي لم يذبح في العيد. كأنه بطل من الناجين من الحرب.

أكاد أنسى الأمر، لولا رؤيته أثناء ذهابي وعودتي من العمل.

بعد مرور بضعة أيام ناداني العامل وأنا أنزل من سيارتي، شرح لي ما حدث في كلمات مقتضبة أغلبها أيمان أعلم أنها كاذبة. مشيت إلى جواره لأنظر إلى الخروف المسجى على الأرض.

يبدو أنه لم يحتمل ما لاقاه من عادم السيارات وتراب الكنس والرطوبة الزائدة، أو كل ذلك. إلى جواره، يجلس ولدي على حقيبة المدرسة ممسكًا بعصًا قصيرة ينبش بها الأرض باكيًا في صمت. ناديته.. لم يجبني.

بعد برهة قال دون أن يلتفت:

ـ معلمتي أخبرتني أن خروف العيد هدية من الله يرسلها للفقراء معنا. لكني لم أخبرك.. لذلك أخذه الله مني.

رَبَّتُ كتفه معتذرًا:

ـ أردت أن أبقيه لك لأنك تحبه.

اقترب ولدي منه في حزن. وضع بعض عيدان البرسيم أمام فمه كما كان يفعل، لم يتحرك. نظر من بين دموعه نظرة طويلة، ثم أدار رأسه إليَّ هازًّا كتفيه في أسى، وانطلق جاريًا إلى المنزل.

١ - أنثى

هل هذه السيدة واحدة من اللائي يوصفن بأن الجنة تحت أقدامهن؟ أهز رأسي في أسى وأهمس:

ـ بينها وبين الله.

أتأملها في صمت وهي منخرطة في بكائها المرير. جمالها بادٍ بالرغم من شعرها الأشعث، نحافتها ملحوظة، هالات سوداء تحيط بعينيها، تنم عن سهر طويل.

ـ أعلم أنه يظنني مجنونة.

لم يملك يومًا قلب امرأة ليدرك ما أعانيه. سنوات عمري انفرطت من بين يدي. إحساسي بأنوثتي فقدته منذ سنوات. أجمل أيام حياتي ضاعت بين حمل ورعاية بغير طائل. عندما ظننت أنني سأرتاح وأبدأ الالتفات لنفسي، عاجلني القدر بطفلة أخرى، تأخذ من شبابي الذي لم يبقَ فيه الكثير. لذلك، أكرهها وأتمنى لو لم أرزق بها. عندما سمعني أدعو عليها بالموت اتهمني بالجنون؛ لأنه لا يفهم.

كلما غلبني النعاس استيقظت على صراخها. أقضي ليلي محدقة فيها. إذا نامت هي، يوقظني واحد من الشياطين الصغار. جلبة في

المطبخ لأن أحدهم كان يشرب، صوت الزجاجة التي يسقطها الآخر في الحمام، أو زوجي نفسه الذي يقوم مبكرًا.

في الصباح، يكاد الصداع يفتك بي. أتمنى أن أخلد للراحة، لكن إزالة الآثار التي خلفوها قبل ذهابهم إلى المدرسة، والتي ستتضاعف بعد عودتهم منها، يجعل راحتي من ضروب المستحيل.

يكرهني لصراخي الدائم. فليقضِ معنا يومًا واحدًا ليرى ما أنا فيه. حجته هي عمله. ماذا عني؟ ألم يجعلني أضحي بشهاداتي من أجل هذا البيت؟ فليشاركني. يتنازل حتى عن عمله المسائي في المكتب الخاص. هل هذا كثير علينا؟

حتى في أيام إجازته بعيد. يعيش مع الجريدة ومباريات الكرة ويتركني أنا معهم. هل هذا كل ما كان يريده مني؟ أحاول أن أنتهي منهم سريعًا، أتفرغ له. أتجمل وأتعطر، فأرى منه نظرة فارغة من كل شيء، كنظرته إلى الشجرة البلاستيكية التي اشتراها ليجمل بها مدخل المنزل. أرتدي زى المربية مرة أخرى وأنتظر النداء.

كنت أظن أن مرور الأيام سيخفف عن كاهلي، فكل صديقاتي يقلن إن حمْل الأطفال يقل عندما يتقدمون في العمر. لماذا لا يكبر أبنائي؟! ما أبيت فيه، أصبح عليه منذ سنوات عديدة. أريد أن أشعر بأنوثتي. ألبس وأتنزه وأتصرف كامرأة لا كمربية أطفال.

اليوم فاض بي الكيل، عندما أستيقظ على صراخي في صغيرتي. أخذني بعيدًا عنها. دفعته بعيدًا، صفعني على وجهي. حاولت أن أضربه فانهال عليَّ ضربًا. لا أريد أن أراه بعد الآن. فليأخذهم ويتركني أبدأ حياتي التي لم أتمتع بها منذ رأيته.

والدي أرغمني على أن آتي لك لتحل لنا هذه المشكلة. إياك أن تقول إني مجنونة. هم لا يفهمون.

اقتربت منها في هدوء وأنا أسألها:

ـ هل تحبينه؟

نظرتْ إليَّ في حيرة. هزت رأسها موافقة، وتعالى صوت البكاء.

خرجت من غرفة الكشف. الأب عيناه مغرورقتان بالدموع. عاجلني الزوج بصياحه:

ـ لم أعد أستطيع احتمالها.

٢ - ذكــر

جلس أمامي، على رأسه هموم السنين. صمت طويلًا، ثم بدأ يتكلم بصوت خافت:

ـ لم أعد أحتمل.

لا أملك غير أن أتجنبها، فهي ترى في كل أفعالي ما يعذبها. تجد من كلماتي ما تفسره على أني لا أطيقها، ترى صمتي أسى، ضحكاتي تَصَنُّعًا، شرودي نوايا غدر بها.

أهرب منها بالعمل طوال الأسبوع. يوم الإجازة، أتشاغل عنها خلف جريدة لا أقرأ حرفًا منها ومباراة كرة لا أعرف شيئًا عن طرفيها. تحاول الحديث معي فأتجاهلها، أعلم أن أي حوار بيننا سينتهي إلى نفس النقطة. لن أطلقها ولن أتزوج عليها مهما أصرت على ذلك.

تحاول أن تنهي انشغالي المصطنع. تتزين مبرزة كل مفاتنها. أحدق فيها متسائلًا في صمت:

ـ ألا تشفع لنا كل هذه الأنوثة في مولود واحد؟ أتذكر كلام الأطباء.. مستحيل. أنكسر وتنكسر رغبتي داخلي فتزيدها ألمًا.

أريدها أن ترحمني. تمنحني الفرصة لأتناسى لليلة واحدة أننا

لن ننجب أبدًا. أن تدرك أنني حلمت مثلها وأتعذب أكثر منها. كل ما تفعله يمزقني. نظراتها المعتذرة، بكاؤها الصامت، حديثها عن العلاج والأمل.

الطامة الكبرى، كانت في تلك الذرية التي خرجت عليَّ بها من رحم الأوهام. أسمعها تكلمهم ليلًا ونهارًا. أشفق عليها، أجاريها تارة، وأنهرها تارة أخرى.

أكاد أجن متسائلًا: هل أنا من فعل ذلك فيها؟ لكني حاولت أن أهون الأمر على كلينا من أول يوم عرفت فيه. لم أسمح حتى للطبيب أن يواجهها بالحقيقة، تلقيت الصدمة وحدي ثم نقلتها لها في رفق. في كل مرة، آخذ نتيجة تحاليلها وأشعاتها وأعرضها على استشاري أكبر، وأعود بنفس النتيجة.

وقفت في وجه أسرتي معلنًا أنني لن أتخلى عنها مهما يكن. أنا الذي تزوج والدي مرة أخرى؛ لأن زوجته الأولى أنجبت له أربع بنات، أضافت إليهن الثانية ثلاثًا ثم جئت أنا ـ الذكر ـ في نهاية المطاف.

في طفولتي عندما كان يصطحبني في نزهتنا الأسبوعية، تمنيت أن نأخذ معنا أيـًّا من أخواتي ولو لمرة واحدة. طلبت منه ذلك، ابتسم ابتسامة واسعة، أخذني في حضنه بحنان قائلًا: النساء يستمتعن في البيوت أكثر مما يستمتع الرجال في الخارج.

كان دائمًا يقول إن محبتي في قلبه تفوقهن مجتمعات. عندما كبرت أكثر سألته عن السبب، فأوضح لي أن من لا ينجب ذكورًا يندثر اسمه، وأن مجيئي تمام لرجولته. أجابني بعضة على شفتيه وضحكة ساخرة عندما سألته عمن لا ينجبون على الإطلاق.

خيرني أبي الزواج بأخرى أو غضبه عليَّ إلى الأبد، لم أستطع أن أرضيه، اخترتها هي، قاطعتني أسرتي، وقاطعنا نحن الكثير من الأصدقاء. فبين الأسئلة المحرجة والشفقة المهينة فقدنا بعضهم. وبين حساب كل ما نفعله مع أطفالهم فقدنا البعض الآخر. لَعِبْنَا وضَحِكْنَا معهم حرمان. صمتنا اشتياق وحسرة، أما تجاهلهم فهو حقد وحسد.

ـ أتحبها؟

ـ أحبها وأشفق عليها. اكتفيت بها منذ زمن. أريدها أن تشفى من أجلي؛ فليس لديَّ سواها.

أنظر إليه وهو جالس في عيادتي مضطربًا. ليتني أستطيع مساعدتهما. أسأله عن تشخيص حالة زوجته:

ـ لا أدري. مرت سنوات طويلة.

ـ الحل، يبدأ من تسليمها بأنها لن تنجب أبدًا، وبأن ترى نفسها أنثى كاملة، حتى وإن كانت لا تنجب، لقد أوصيتها بالذهاب إلى أحد زملائي المتخصصين في أمراض النساء. أذهب معها إليه، وجودك إلى جوارها سيساعدها كثيرًا.

أجابني ثائرًا:

ـ اسمع. إياك أن تحيي في قلبنا أملًا مات من زمن. جئناك لتشفي جنونها لا لتمرضنا أكثر.

ثم غادر في غضب.

بعد يومين فتحت الظرف الأبيض الكبير الذي جاءني من زميلي، تشخيص حالتها، تلجمني المفاجأة.

المرأة لم تكن عقيمًا يومًا ما. أبحث عن تحاليل زوجها، فلا أجدها.

أغطي وجهي بكفي مفكرًا للحظات. أمد يدي إلى سماعة الهاتف في تردد.. لأخبرها بكل شيء.

العين والحاجب

اليوم شعوره يختلف، يملؤه إحساس بالقوة اكتسبه من وقوفه إلى جوار سيادة العقيد في لجنة المرور. كلما رأى رخصة تُسحب أوغرامة تُدفَع شعر بسعادة غامرة. تمنى لو يكلفه الضابط بمعاقبة أي منهم، لكنه لم يفعل.

عادةً ما يمد يده القصيرة مشيرًا إليهم، تتسارع السيارات للعبور متجاهلة إشارته، تتوقف إحداها احترامًا للضوء الأحمر فتصب على قائدها لعنات من خلفه.

عندما بث حزنه لابن قريته الجامعي على أنه سيترك والديْه المسنيْن وإخوته الصغار، أخبره أنه شرف له ولهم أن يصبح عينًا للقانون، ما عاد يحكيه له عن أن السيارات الفارهة تتوقف بحركة من يده كذبة كبيرة. يكادون لا يرونه، طالما انهال عليه السباب عندما يصفر لإيقاف السيارات كأنه يرتكب جُرمًا ما.

سأل عم عارف الصول يومًا:

ـ لماذا لا يحترمونني؟!

أجابه بأنهم لا يحترمون أشخاصًا، يخافون من دفتر المخالفات والنجوم على كتف الضابط فقط.

ـ ألا يحاسبهم أحد؟

ضحك الرجل وهو يحكي له عن وقوفهم أمام وكيل نيابة المرور، كل منهم يرجوه أن يخفف عنه قيمة مخالفات يقسمون بالله إنهم لم يرتكبوها.

ـ يدفعون كثيرًا؟

أجابه وهو يغمز بعين واحدة.

ـ كل حسب مركزه.

أعجبه ذكاء القانون، فأصحاب المناصب، كالعمدة والمأمور، لا يمكن أن يحاسبوا مثل بهية الدلالة وأبو الليل المجذوب، عين العقل.. والعدل.

هز كلاهما رأسه موافقًا على ما فيها.

كلما سبه واحد من قادة السيارات تخيله يوم تجديد الترخيص، يستجدي لتخفيض غرامته، تخرج منه في أحلام يقظته كلمات حادة.

ـ ألف جنيه يا عديم الالتزام، وألف أخرى لأنك أسأت إلى صابر، مندوبنا في الطريق.

يسمعه الصول فيبتسم ساخرًا:

ـ أفقْ يا صابر.

ينتبه في خجل ويشير للسيارات بحركته المعتادة.

يأتيه صوت العقيد صارمًا:

ـ غيَّر.

يمد يده مشيرًا لإيقاف الطريق طبقًا للتعليمات. السيارات لا تتوقف، يعلو صوت الضابط:

ـ أوقفهم أيها الحمار. تنتاب الصول العجوز الحماسة فيمد يده الأطول قليلًا مع الصوت الحاد الخارج من صفارته، يقطع نهر الطريق على السيارات القادمة وهو ينظر إلى العقيد بطرف عينه في فخر.

تتسع عينا صابر وهو يراه يطير في الهواء ساقطًا على وجهه، بعد الصرير المخيف الذي أصدرته عجلات السيارة الفارهة، يجري عليه في فزع، يسمع تأوهاته فيطمئن قليلًا:

ـ سلامتك ياعم عارف.

ـ يبدو أن ساقي كُسرت.

يحمله إلى أن يجلسه على طرف الرصيف، يلتفت إلى قائد السيارة الذي نزل منها غاضبًا.

ـ حرام عليك.

ينظر إلى العقيد الذي طلب رخصة القيادة في غضب. تحين منه التفاتة إلى السيارة. مليئة بالمخالفات التي يعرفها جيدًا؛ زجاج أسود، لوحات أرقام غير موجودة. يراقب الرجل الذي وقف يتحدث مع الضابط واثقًا، ثم اتجه إلى الصول واضعًا في جيبه مبلغًا من المال، بعد أن ربَّت كتفيه متمتمًا ببعض الكلمات.

ـ لقد ذهب يا عم عارف!

يهز الرجل رأسه والدموع تنساب من عينيه من شدة الألم:

ـ إنه وكيل نيابة المرور يا ولدي.

يسأله في تردد:

ـ والقانون؟

ـ العين لا تعلو على الحاجب يا صابر.

وقف يحدق في النسر النائم على كتف العقيد في ذهول.

من يومها لم تَعُد أحلام اليقظة تنتابه. يشرد أحيانًا عندما تقع عينه على الصول الذي ما زال يعاني من عرج خفيف. يتذكر هيبة وكيل النيابة، والقانون الذي يمثله. تمتد أصابعه إلى وجهه في حركة آلية، كما لو كان يتأكد.. من مكان العين والحاجب.

حكم السماء

تلقى عبد اللطيف الخبر.

لم يسعد به مثل آخر مرة، بل تنهد وقام ليفتح باب الدار، ذاهبًا ليمشي في الغيط وحيدًا. كان لا بد من أن يفرح؛ فأم حمادة تلد مرة أخرى، ولكن هذه المرة لم يفعل.

كان عبد اللطيف طيبًا، ضعيف البنية، قصير القامة حتى إن كل أطفال القرية كانوا يقيسون طولهم عليه في فترة النمو. أما أمهاتهم، فكن لا يتمالكن أنفسهن من الابتسام عندما يرينه، متعجبات كيف جمع هذا الرجل هذه الملامح معًا، ثم يعدن فيستغفرن الله؛ فهذه خلقة ربنا وهم لا يعيبونها.

عيناه ضيقتان كأنهما زران من أزرار الجلباب الذي يلبسه العمدة، تحتهما توجد ثنيات كثيرة، يظنها الناظر من السن. أنفه يقبع مفلطحًا كبيرًا فوق فم واسع يتناسق معه وإن كانت شفتاه ليستا على وفاق؛ فالعليا رفيعة مثل عود الجرجير، أما الصغرى فممتلئة مثل حبة الطماطم التي يأكلها على الغداء.

بالرغم من قامته وملامحه، كان أهل القرية يرونه محظوظًا؛ فهو

يملك نصف فدان اشتراه بعد سنوات طويلة من العمل في حقل العمدة الكبير، كما أنه تزوج عزيزة ابنة عمه التي تزيد عنه في كل شيء؛ فهي أطول منه بشبر، وأعرض منه بشبرين، وأجمل منه بألف شبر لو أن الجمال يقاس بالأشبار. بيضاء لفحت الشمس وجهها من العمل معه في الحقل لفحة تزيدها جمالًا عندما تكسو وجهها باللون الذهبي، وتجعل عينيها العسليتين تلمعان أكثر من المعتاد.

تابع عبد اللطيف سيره وهو يتذكر يوم أخبرته بحملها منذ شهور، كان عائدًا من الحقل بعد يوم عمل طويل، وجدها تبتسم في حياء وهي تنقل له الخبر.

يومها فرح عبد اللطيف. نظر إلى نفسه في المرآة، فتل شاربه وهو يقول لنفسه:

ـ والله براوة عليك يا عبد اللطيف.

خرج من داره وهو يشعر أنه قد زاد طولًا، وأن قدمه تشق الأرض شقًّا. ذهب إلى المقهى ليجلس مع أصحابه طالبًا شيشة برغم أنه لا يفعلها إلا نادرًا، سأله أحدهم:

ـ شكلك مبسوط النهاردة يا عبد اللطيف.

ابتسم، تنحنح، ثم ألقى عليهم الخبر.

انكبوا عليه جميعًا مهنئين، وساد الصخب والضحكات، ونوبات قصيرة من سعال الضحك تصاعدت مع دخان الشيشة.

عكر الجو فجأة صوت الحمزاوي شيخ الخفر وهو يقول بصوته الأجش:

ـ مبروك يا عبد اللطيف.

غمغم الرجل بالشكر.

عاجله قائلًا:

ـ إنما قللي يا عبد اللطيف، إيه اللي جد عليك؟ دوا ولا شربة؟ قوللنا عشان كل اللي نعرفهم من سنك ما بيخلفوش، ينوبك فيهم ثواب.

تجمدت ابتسامة عبد اللطيف، أجاب بصوت متحشرج:

ـ دا رزق يا حمزاوي، رزق من عند ربنا.

سعل حمزاوي سعال الأشرار وهو يقول:

ـ على كل حال ربنا يرزقنا، بس لو افتكرت، ابقى ابعت لنا الشربة مع الواد ضاحي صبي البقال، ما أنت كتير بتبعته يودي حاجات عندك الدار.

ساد الصمت لحظات، لم يستطع عبد اللطيف أن يجيب، قام دون أن يسلم حتى على أصحابه، وهو يفكر في كلام حمزاوي، عشرون عامًا مضت منذ أنجب آخر أبنائه الثلاثة الذين يعملون في الخليج.

حاول أن يتذكر الليلة الموعودة، لم يستطع، الذاكرة لم تعد كما كانت، ولا الصحة أيضًا. وقعت عيناه على جرار العمدة الذي كان يقوده بنفسه منذ سنوات بعيدة، كساه الصدأ ولم يعد يتحرك من مكانه إلا نادرًا وبعد خليط من الشحوم والزيوت. هل يمكن

أن يساهم هذا الجرار في إنتاج زرعة جديدة؟ عض على شفتيه ولم يجب، اشتعلت الأفكار في رأسه، عندما عاد إلى المنزل استقبلته أم حمادة مبتسمة، نظر إليها صامتًا، ثم دخل إلى غرفته لينام.

مضت الشهور بطيئة، عبد اللطيف لا يحادث أم حمادة، لم تفهم السبب في البداية، خبر الحوار بين زوجها وشيخ الخفر ظل ينتشر في القرية إلى أن وصلها، فلم تستطع أن تحادث زوجها في أي شيء.

الأيام تمر ثقيلة على الرجل، كلما كبر الجنين زاد الثقل كما لو كان ينمو على صدره لا في بطن زوجته، حاول أن يسأل أم حمادة يومًا عن ما كان بينها وبين ضاحي، أشاحت بوجهها بعيدًا وبكت وهي تغمغم: حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا عبد اللطيف أنت وحمزاوي.

أسقط في يد الرجل. ماذا سيفعل؟ قرر أن يتأكد من الحقيقة، برغم أن كل شيء كان يقوده إليها، ما سمعه من أهل القرية، نظرات الشامتين والساخرين والآسفين التي كانت تشق صدره شقًّا، هروب عيني زوجته من عينيه، ضاحي الذي يتوارى كلما جمعتهما الصدفة، والجرار الذي يقبع عاجزًا خلف بيت العمدة.

قرر أن يحسم الأمر، ذهب إلى حلاق الصحة، يسأله عن رأي الطب في الموضوع، أجابه الرجل وهو يلقي بالجريدة التي كان يقرؤها على الأرض، ناظرًا له من تحت نظارته السميكة، بأن كل وقت وله أذان.

صدر الحكم من عقله في لحظات أنه لا يريدها في الدنيا، رأى

نفسه يقتلها وهي تصرخ معتذرة، استجمع شجاعته التي لم تسعفه، فقرر أن يؤجل الأمر إلى أن تلد.

وها هو يمشي مبتعدًا عن الدار، هاربًا يجر رجليه جرًّا، إلى أن وصل إلى شجرة الكافور الكبيرة، جلس تحتها، فأخذته الأفكار. لم يدرِ كم مر عليه من الوقت. أفاق على صوت حاد، ابن القابلة يجري نحوه طالبًا منه أن يذهب ليأتي بالطبيب؛ لأن زوجته في حالة خطرة.

جرى عبد اللطيف نحو الدار مسرعًا، توقف فجأة كأنه تذكر شيئًا. عاد إلى مكانه ببطء.

ـ إيه يا عم عبد اللطيف؟ مش هتجيب الدكتور؟

هز رأسه نافيًا وهو يجلس في نفس المكان دون أن ينظر إليه:

ـ مش هاجيب حد.

نظر إليه الولد للحظات، ثم أطلق ساقيه للريح.

أطرق الرجل، في صدره مشاعر مختلطة من القلق، التمني، وتأنيب الضمير.

نظر إلى السماء وهمس:

ـ لطفك يا رب.

ـ تذكر الجرار الأصفر القديم، فهمس مرة أخرى:

ـ خلصها من عندك.

ظل جالسًا كالتمثال إلى أن انتصف النهار دون أن يأتيه أي خبر. لم يستطع أن يقاوم؛ جرجر قدميه إلى أن وصل إلى الدار، وجد الصمت مخيمًا فأدرك أن أمر الله نفذ.

فتح الباب ببطء، وجد الطبيب جالسًا يشرب الشاي مبتسمًا، عاجله قائلًا:

ـ مبروك يا عبد اللطيف، ولد يتربى في عزك.

ـ وأم حمادة؟ قالها في تردد.

ـ زى الفل، ادخل يا راجل.

دخل فوجد زوجته نائمة على السرير، الداية تحمل المولود، تنظر إليه بابتسامة رآها مليئة بالتشفي.

ناولته المولود، مد عبد اللطيف يديه في تردد، حمل الولد وهو يتمتم بالبسملة.

نظر إليه في ريبة وقد عقد حاجبيه. ابتسم.. اتسعت ابتسامته، ثم ضحك بصوت عالٍ.

كانت عينا المولود صغيرتين كأزرار جلباب العمدة، أنفه كبير، شفته العليا مثل عود الجرجير والسفلى مثل نصف حبة الطماطم التي يأكلها عبد اللطيف على الغداء. احتضنه الرجل وهو يضحك ويبكي في آن واحد، خرج به إلى ساحة الدار، نظر إليه الطبيب وهو يبتسم قائلًا:

ـ نسخة منك يا عبد اللطيف.

أجاب في سعادة:

ـ أصله ابن حلال يا دكتور، لكن هو مش كل وقت وله أذان؟

ضحك الطبيب بصوت عالٍ، أجاب متفهمًا وهو يفتح باب الدار:

ـ رزق ربنا مالوش وقت ولا أذان يا عم عبده.

سكت عبد اللطيف، نظر إلى ابنه مرة أخرى، دخل إلى الغرفة ليقبل رأس أم حمادة. ارتدى جلبابًا نظيفًا، وذهب إلى المقهى مرفوع الرأس.

العيون المغمضة

لأول مرة أجلس معها دون أن أنظر في ساعتي.

عيناها مغمضتان في ضعف لم أعهده، أنفاسها تخرج متقطعة، تتعلق عيناي بصدرها لأتأكد أنها ما تزال في قائمة الأحياء.

تفتح عينيها ببطء، تلقي نظرة على وجهي، اللمعة المعتادة تبدو كضوء شمعة يتراقص قبيل النهاية.

ـ لماذا تركت عملك يا حبيبي؟ أنا بخير.

ـ ألف سلامة عليكِ يا أمي.

تصر على أنها بصحة جيدة، ترجوني أن أذهب لعملي فهي تعلم، كم أنا مشغول.

أميل بشفتي على أذنها، أخبرها أنني لن أذهب إلى أي مكان إلى أن أطمئن عليها. ترفع رأسها في ضعف لتثبت لي أنها على ما يرام، يسقط منها وتروح في سبات عميق يكاد يفزعني، لولا أنفاسها التي انطلقت في انتظام.

عندما أخبرتني زوجتي أن أمي مريضة، كنت في وسط اجتماع

هام، أجبتها في كلمات مقتضبة أنني سأزورها بعد إنهائه، رفضت في غضب:

ـ بل ستنهيه الآن، تخبرهم أن أمك مريضة وتغادر في الحال. ولا تنسَ أن تلغي كل مواعيد اليوم لأننا سنبقى إلى جوارها.

عدت إلى الاجتماع قلقًا، أكدت عليهم أننا لا بد من أن نصل إلى قرار خلال عشر دقائق.

بعد نصف ساعة، ظهر رقمها مرة أخرى، شعرت بالحرج، لم أجبها، غادرت معتذرًا.

في طريق الخروج، مررت بمكتب سكرتيرتي، تذكرتُ التعليمات، سألتها عن مواعيد اليوم لأقيِّم أهميتها، عاجلتني بأدعية الشفاء لأمي. أخبرتني أنها ألغت ارتباطاتي بناء على أوامر زوجتي التي أوضَحت لها أنني سأؤكد ذلك، لم أجرؤ علي الاعتراض.

فتحت عينيها مرة أخرى:

ـ أما زلت هنا؟

ـ اليوم إجازة يا أمي، اطمئني.

أرد على تساؤلاتها القلقة.

ـ لست مريضًا، كل ما في الأمر أنني أريد قضاء بعض الوقت معك.

تبدو عليها السعادة، تسألني عن أخبار العمل، عن أولادي وزوجتي التي تجيبها من على الأريكة المقابلة لسريرها بأنها موجودة،

وستذهب بعد قليل لتأتي بصغيرينا من المدرسة، ترفع رأسها قليلًا، تنظر إليها في حب وتشير بيد معروقة مرتعشة.

تدير رأسها إليَّ مرة أخرى وابتسامتها تتسع:

ـ أتدري ما حدث لخالتك؟ تستطرد لتحكي لي أحداثًا معتادة، تنتقل منها إلى أحوال جيرانها، تغييرات تنوي عملها في الشقة التي تقيم فيها مع الخادمة الصغيرة، بعد وفاة أبي منذ سنوات. تضحك وهي تخبرني عن قصة الفأر الذي كاد يُذْهِبُ عقلها بالأصوات التي يصدرها في الليل، وأن ابن حارس العقار الصغير، نجح في اصطياده بعد أن بات أربع ليالٍ على الأريكة التي تجلس عليها زوجتي، ممسكًا في يده بعصا والده.

كلماتها تخرج متقطعة في صعوبة وإن كانت غزيرة. أشفق عليها، أطلب منها أن تتوقف عن الكلام لبعض الوقت لتستريح، تهز رأسها في عناد.

ـ دعني أتكلم معك، أريد أن أحكي لك أشياء كثيرة.

تواصل حديثها في نهم، أشرد مفكرًا فيما تقوله، تبدو كأنها محرومة مني. أزورها بصفة شبه يومية، أتذكر كلام زوجتي عن الفارق بين الزيارة وبين تحويل بيتها الواقع في وسط المدينة إلى استراحة. أعترف في داخلي أنني أمر بها لبعض الوقت بين مشاوير طويلة لا تنتهي. تنحصر زيارتي في غذاء أتناوله بينما أفكر في مشاكل العمل وهي تنظر إليَّ في شوق، أو بعض النوم في سريري الذي لم يعد يريحني كما كان.

تتوقف عن الكلام فجأة، تتقطع أنفاسها أكثر فأفزع، الطبيب الذي زارها في الصباح أكد أن نقلها إلى المستشفى لن يفيد كثيرًا، تعاني من الشيخوخة، كل تحاليلها على ما يرام. أناديها بصوت مرتعش، لا تجيب.

أقفز إلى جوارها في السرير، آخذها بين ذراعي، أضع رأسها الصغير على صدري العريض، أشعر به يعجز عن احتوائه، أبكي في صوت خافت. يمر أمام عيني شريط من ذكرياتي؛ لعبها وضحكاتها في طفولتي، ساهرة إلى جواري تمسح رأسي وتتمتم بآيات الشفاء في مرضي، جالسة في وضع الاستعداد لتلبية طلباتي أيام المذاكرة، و.. و..

أفتش عن الأيام القريبة، نظرات صامتة من كلينا، أنا محتوى صمتها، وهي ليست جزءًا من صمتي. ترن في أذني جملتها الشهيرة (أستثمر فيه أيام عمري)، أعض على شفتي، متسائلًا عن فائدة استثمار لم تحصل على أرباحه يومًا، حتى وإن تزايدات قيمته أمام عينيها.

كانت تطلب القليل، زيارات عائلية، ذهاب معها إلى الطبيب. زوجتي وسائقي لم يغنياها عني.

ـ أحب أن يروني معك أنت.

قالتها على استحياء أكثر من مرة. أقبل يديها مطلقًا الوعود، ثم أنسى في غمار الحياة. الآن، أريد فرصة أخرى، لم تتركيني أتألم يومًا واحدًا، فلا تتركيني غارقًا في ندمي إلى الأبد.

تسقط دموعي على وجهها فتنتبه في انزعاج.

تبتسم لي في حنان، تتحرر من ذراعي، تحتويني بين ذراعيها، تضع رأسي على صدرها، تمسح عليه برفق، فترد إلى قلبي راحة فقدها منذ زمن بعيد:

ـ سامحيني يا أمي.

كلماتها تأتيني واضحة بالرغم من ضعف صوتها:

ـ أسامحك؟ لم تفعل شيئًا واحدًا يغضبني طيلة حياتك.

رنين المحمول يأتي مزعجًا، أتجاهله فتأمرني بالرد عليه.

صوت سكرتيرتي يخبرني بموعد الغد مع عميل هام.

ـ أنا في إجازة لمدة أسبوع، بعدها سأخبرك بمواعيد العمل الجديدة.

أغلقه قبل أن يأتيني ردها، ألقيه بعيدًا.. أختبئ في صدر أمي مرة أخرى.

عندما تقفز الأفيال

أنا الملك وكلكم تأتون من بعدي.

قالها بغضب وهو يدب بقاعدته الخشبية على المربع الأبيض الذي يقبع فيه.

أجابه الوزير في هدوء:

ـ كلنا في خدمتك يا مولاي.

ـ كيف أصبحت أقوى مني؟ تتحرك في جميع الاتجاهات كيفما تشاء، بينما لا أتحرك أنا أكثر من خطوة واحدة.

ـ خادمك وخادم جيشك يا مولاي.

ـ من اليوم سأتحرك أنا بدلًا منك، وأنت لك خطوة واحدة فقط.

أجاب الوزير في تردد:

ـ أنت رمز يا مولاي،وأصول اللعبة..

ـ أنا الذي أضع أصول اللعب. سأكون أنا الرمز والقوة وأنت خادمي كما تقول.

عندما أصر الوزير على الاعتراض؛ استدار الملك إلى الجنود المصطفين أمامهما صارخًا:

ـ اهجموا عليه.

لم يتحرك أي من الجنود السود الصغار. جاء صوت أحدهم منخفضًا:

ـ نحن نتحرك إلى الأمام فقط يا مولاي، في اتجاه الجيش الآخر!

ضربه الملك بصولجانه، فألقى به خارج الرقعة وهو يصيح في الباقين:

ـ بل تتحركون لحمايتي أيها الحمقى في الاتجاه الذي أراه.

تحرك باقي الجنود نحو الوزير، حاول المقاومة بقوته المعروفة. أطاح بأربعة منهم إلى الخارج، نجح الباقون في زحزحته بصعوبة إلى أن أسقطوه، ثم عادوا إلى مكانهم مصحوبين برضا الملك، وثناء الحصان الذي صهل في سعادة:

ـ نِعْمَ الرأي يا مولاي.

نظرت له باقي القطع في دهشة شديدة.

منذ دقائق كان كل شيء على ما يرام، لكن بعد أن تراصَّ الجيشان على الرقعة؛ الحصان ذو الرأس المحني إلى أسفل تحرك قافزًا فوق رأس الفيل إلى مربع الملك الذي تعجب من جرأته. اقترب منه أكثر وأسرَّ في أذنه بضع كلمات. هز الملك رأسه موافقًا في غضب، التفت إلى وزيره وكان ما كان.

شعر الملك بشيء من القلق عندما نظر إلى مكان وزيره الفارغ. عاجله الحصان وهو يزيد من انحناء رأسه:

ـ نحن فداؤك يا مولاي. اسمح لي أن أقبع هنا إلى جوارك لأحميك بنفسي.

نظر إليه الملك في تردد:

ـ تريد أن تكون وزيرًا؟

ـ العفو يا مولاي. أمثالك لا يحتاجون وزراء، بل مستشارك أنا وأخي. لكن، سأحتاج إلى شيء من الحرية في حركتي لحمايتك. أتسمح لي أن أتحرك أنا في خطوط بدلًا من الفيلة.

بعد لحظات. صدرالأمر الجديد، أن يتزحزح الفيلان بعيدًا، يقبع الحصانان إلى جواره ليتحركا في خطوط وَتَرية، وأن يصبح القفز من دور الفيلة.

استجمع واحد من الفيلين شجاعته، شرح للملك بصوت تخنقه الدموع، أن الأفيال لا تستطيع القفز حتى فوق رقعة الشطرنج، وأن ذلك سيجعل الجيش بأكمله مدعاة للسخرية.

فكر الملك مليًّا، وجد كلامه صحيحًا. ألقى نظرة طويلة على الحصان القابع إلى جواره، ثم أصدر قراره:

ـ يتغير اسم الفيلين في جيشي إلى القردين؛ حتى يمكنهما القفز.

مستشاره الجديد، أثنى على حكمته؛ مؤكدًا له أن هذا سيربك كل الجيوش الأخرى ولا شك.

نظر الفرس الآخر إلى رفيقه في غضب ساكن، لم يكن سعيدًا، كان يرى أن قفزاته في اتجاه الجيش الآخر هي أفضل ما يفعله،

حتى وإن كان وقوفه بعيدًا عن الملك. أراد الاعتراض، تذكر ما حدث للوزير منذ قليل. تحرك من مكانه إلى حيث أمره. قبع منتظرًا الأوامر في صمت.

مع بداية المعركة كان الملك الأبيض مندهشًا من الجيش العجيب الذي يواجهه، أمر جنوده بالتحرك في حذر. الملك الأسود أصدر أوامره للفيلين لبدء الهجوم.

لم يترددا طلبًا لرضاه. قفزا في آن واحد، ارتطما ببعضهما وسقطا فوق جنديين من جيشهما. تحطمت القطع الأربع في صوت مخيف صَكَّ أذن ملكهم الذي لم يحزن عليهم، بل رأى أنه لم يكن محتاجًا إلى جنود بهذه الحماقة.

تعالت ضحكات جنود الجيش الآخر. نهرهم وزيرهم في غضب؛ آمرًا بالهجوم على القلعتين اللتين وقفتا في حيرة عاريتين من الحماية. تحسرتا عندما سمعتا ضحكات الجنود الصغار الساخرة. الجندي الباقي حاول الدفاع عنهما باستماتة. لم يطل الأمر حتى سقط الثلاثة.

امتلأت عينا الحصان الثاني بالدموع، تسمر في مكانه بين خوفين.

تحرك المستشار بسرعة على أحد أوتار الرقعة، وصل إلى الحافة، أضاف قفزة أخرى احتار في سببها ملكه، عندما رآه يطيح بنفسه إلى الخارج.

لم يتركه الوزير الأبيض في حيرته طويلًا، هجم عليه في قسوة صائحًا:

ـ (كش) ملك.

تحرك مجرجرًا قاعدته إلى ركن الرقعة في أسى، استعد الوزير للهجمة القاضية. جاءه صوت ملكه صارمًا:

ـ قفْ.

تسمر في مكانه منتظرًا.

شاور الملك جيشه سريعًا، أجمعوا على الإبقاء على الملك الأسود لبضعة أدوار أخرى؛ فاللعب ضده.. طريف.

أصدر أمره للوزير بأن يهاجم الفرس الساكن، ثم ينسحب تاركًا لذلك الملك تكوين جيش جديد.

عارضه أحد الجنود بعد الاستئذان:

ـ مولاي، سيفيدنا وجود هذا الصامت معه.

نظر إليه مفكرًا للحظات، هز رأسه موافقًا، وأصدر أمره الجديد.

كشري مصر

نظرت في ساعتي بتكاسل، تجاوزت منتصف الليل بقليل، وأنا عائد من مكتب المحاماة الذي أعمل به بعد يوم عمل طويل، زاده طولًا أن سيارتي العزيزة غاضبة مني لانشغالي عنها.. لذا قررت أن تقضي الليلة عند (الميكانيكي)، وتركتني وحيدًا أصارع الزحام والتعب، لم يخفف عني سوى أننا كنا في بدايات الصيف، في ذلك الوقت الذي تمتعك فيه نسماته دون أن يخنقك حره.

المكتب في ميدان السيدة زينب، الذي لا تنام فيه الحياة أبدًا ولا يمكنك معرفة الوقت إلا بالنظر إلى ساعتك، المحال لا تغلق أبوابها إلا مع أضواء الفجر، أصوات الباعة ما تزال مرتفعة، بل زادتها حماسة رغبة الجميع في الانتهاء من بيع ما تبقى من بضائعهم ليذهبوا إلى منازلهم استعدادًا ليوم جديد برزق جديد.

لم يكن الميدان مزدحمًا وإن كان يعج بالحركة. أشكال مختلفة، الطويل والقصير، الأبيض والأسمر، الجلباب والقميص..الكل يتحرك، أما المحال فكان أكثرها حياة المطاعم والمقاهي التي تعج بهواة السهر.

أخذت أجيل نظري يمينًا ويسارًا.. كنت بالرغم من تعبي،

مستمتعًا بما حولي فلم أمشِ في هذا الميدان منذ مدة طويلة، تحديدًا منذ عامين كاملين بعد أن اشتريت سيارتي المزعومة.

من بين كل ما حولي لا أدري لماذا تعلقت عيناي بذلك الرجل المسن. تبدو على وجهه الطيبة الشديدة وعلى جسده بقايا صحة وفيرة، يمسك في يده طفلة قد تكون ابنته الصغرى أو حفيدته الكبرى، ساحرة الملامح بعيونها الواسعة وبشرتها السمراء وضفيرتها السوداء الطويلة التي جملت نهايتها بشريطة حمراء لامعة.

ربما لفت نظري إليه ذلك الجلباب الأصفر اللون الذي يلبسه.

فقد كانت تبدو عليه آثار صراع لم تحسمه السنون بين الفقر والنظافة، لا تقع عيناك على بقعة واحدة فيه، بالرغم من تآكل أطرافه، ورقعتين أخفيتا بمهارة على الكتف اليمنى.

أما فستان الطفلة فكان جديدًا ولا شك، أحمر زاهي اللون، عليه ورود صفراء كبيرة تزيده بهجة مع ابتسامتها الواسعة ونظراتها المليئة بالانبهار وهي تتلفت يمينًا ويسارًا.

اقترب الرجل مني وهو ينظر إليَّ في تردد، شعرت بالحرج كمن أمسكه صاحب البيت يتلصص من النوافذ. أدرت رأسي إلى الجهة الأخرى، ناداني بلهجته الريفية:

ـ لو سمحت يا أستاذ.

ـ نعم، يا عم الحاج.

ـ عاوز أروح موقف عربيات الفيوم.. أركب أتوبيس نمرة كام؟

نظرت في ساعتي وأنا أجيب:

ـ الساعة دلوقت واحدة بعد نص الليل، ما فيش قدامك غير إنك تركب ميكروباص.

سألني في تردد:

ـ والأجرة كام يا أستاذ؟

ـ جنيه واحد، خليك قريب مني واركب معايا نفس العربية، أنا رايح هناك برضه.

شكرني الرجل وابتعد بعض الخطوات. رأيته يخرج من جيب جلبابه بعض النقود، نظر إليها في خيبة أمل ثم قسمها إلى قسمين، وضع كلًّا منهما في جيب من جبوب الجلباب. أمسك ما تبقى وتلفت يمينًا ويسارًا إلى أن رأى ذلك الصبي الذي كان يحمل على رأسه صينية، رص عليها علب الكشري البلاستيكية..

ناداه الرجل:

ـ إنت يا ابني يا يا بتاع الكشري.

جاء صوت الولد رفيعًا حادًّا:

ـ أيوه جاااااي.

ـ بكام علبة الكشري؟

ـ جنية ونص يا با.

ـ سأله بصوت منخفض:

ـ مفيش علبة بجنيه واحد يا ابني؟

أطلق الصبي ضحكة سخرية عالية وهو يجيب:

ـ مفيش منه بجنيه يا حاج.. دا كشري مصر.

ابتلع الرجل ريقه وهو يخفض صوته أكثر، مادًّا يده بالنقود:

ـ خلاص يا ابني. اديني علبة واحدة.

دفع إليه المال. أعاد إليه الصبي خمسين قرشًا. وضعها الرجل في جيب الجلباب العلوي، وأخذ العلبة.

تحرك إلى جانب الطريق وهو يمسك طفلته، فتح العلبة، مسح الملعقة البلاستيكية بطرف الجلباب، وأعطاهما للبنت وهو يهمس:

ـ خدي يا وردة، كلي يا بنتي. إنتي ما كلتيش حاجة من أول النهار.

سألته البنت في براءة:

ـ وانت يا با مش هاتاكل ولا إيه؟

أجاب في بساطة:

ـ يا بنتي أنا كلت عند المقاول، ربنا يكرمه، كان عمل لنا عزومة كبيرة، بس مكانش يصح إني آخد أكل معايا وأنا ماشي.

بدأت البنت تأكل في صمت، بعد لحظات جاءت السيارة، ناديته قائلًا:

ـ يا حاج، عربية ميدان الرماية، ياللابينا.

أخذ من ابنته العلبة بحرص.. أمسك يدها ثم صعدا أمامي إلى السيارة.

جاءت جلستي خلفهما تمامًا، رأيت الرجل يناولها العلبة مرة أخرى وهو يقول:

ـ خدى يا وردة، كلي يابنتي، إنتي ما كلتيش حاجة من أول النهار.

تحركت بنا السيارة تتهادى بسرعة متوسطة. البنت تأكل في نهم شديد، وأبوها يحكي لها عن المقاول ووليمته، عن أصناف الطعام التي رآها هناك، وعن المال الذي سيرسله لهم قريبًا من أجل المشروع الذي لن يأمن عليه سوى أبيها، والبنت تأكل في صمت، وإن كانت تجيب بعينيها الواسعتين على كل ما يقوله أبوها، وكلما توقفت عن الأكل لحظة، رَبَّتَ كتفها بحنان وهو يقول:

ـ كلي يا بنتي. إنتي ما كلتيش حاجة من أول النهار.

تشاغلت عنهما بمراقبة الطريق، فقد كان تأخر الوقت وعدم القيادة يتيحان لي رؤية جمال القاهرة الذي لا تراه العين إلا في ذلك الوقت من الليل.

أعادني إليهما بعد لحظات صوت البنت وهي تقول:

ـ شبعت يا با.

عاجلها الرجل مرة أخرى:

ـ يا بنتي كلي، مش باقيلك كتير.

هزت البنت رأسها في إصرار:

ـ مش قادرة يا با، شبعت على الآخر.

ـ بالهنا والشفا يا بنتي.

أغلقت وردة العلبة في كسل، وضعتها تحت المقعد، أخذت تحدق في الطريق من نافذة السيارة. نظر إليها الرجل بعد لحظات، سألها قائلًا:

ـ إنتِ مش هتنامي يا بنتي؟ الطريق لسه طويل.

أجابت في طفولة:

ـ عاوزة اتفرج على شوارع مصر.

أجابها في رقة مشوبة بالحزم:

ـ نامي يا وردة. السفر طويل ومش عارفين هنلاقي عربية نركبها على طول ولا لأ.

هزت البنت رأسها موافقة، أسندت رأسها إلى النافذة، ثم اغمضت عينيها استعدادًا للنوم.

أخذ الرجل ينظر إليها في صمت. انتظمت أنفاسها في عمق يميز نوم من لا يحمل همومًا يضيق بها صدره.

لم أكد أنشغل بالطريق مرة أخرى، حتى لفت انتباهي صوت الرجل وهو يهمس بصوت خافت:

ـ وردة، يا وردة.

لم تجبه ابنته التي بدا عليها أنها راحت في سبات عميق، تحرك

الرجل في هدوء، مد يده إلى أسفل المقعد، أخذ العلبة وفتحها في حركة واحدة.

أخذ يأكل منها في صمت ونهم، كان يبدو عليه الجوع الشديد، ابتسمت وأنا أراه يحاول أن يقلل من كمية الكشري في كل ملعقة يأكلها، كأنما يحاول أن يتغلب على قلة الكمية بكثرة الملاعق، وهو يختلس النظر إلى ابنته بين كل ملعقة وأخرى.

أتى الرجل على ما كان في العلبة في ثوانٍ معدودة، أغلقها بحرص شديد ثم نظر حوله في عفوية. التقت عيوننا فابتسم في حرج، ابتسمت وأدرت عيني بعيدًا.

لمحته وهو يعيد العلبة تحت المقعد بهدوء، ثم أخذ ابنته في حضنه وأغمض عينيه. نظرت إليه في إكبار وأنا أتذكر حكاياته عن وليمة المقاول. هززت رأسي يمينًا ويسارًا حسرة على قضايا أراها كل يوم في عملي بين آباء وأبناء؛ يريد أن يأكل كل منهم الآخر من أجل حفنة من الجنيهات.

أفقت بعد قليل على صوت السائق:

ـ الآخر يا أساتذة. ميدان الرماية.

مددت يدي لأهز الرجل، فتح عينيه على مهل، وأيقظ ابنته في رفق.

ـ وصلنا يا وردة. إصحي يا بنتي.

فتحت البنت عينيها في تكاسل، دعكتهما ببطء ثم قامت تجرجر قدميها، يتبعها الرجل.

قمت خلفهما. مشت ابنته خطوتين، توقفت فجأة كمن تذكرت شيئًا ثم قالت:

ـ آبا. علبة الكشري.

تسمر الرجل مكانه لحظة، ثم قال في اضطراب:

ـ سيبيها يا وردة، مش فاضل فيها كتير.

هزت رأسها في إصرار وهي تقول:

ـ لأ، أنا عاوزة أمي تدوق كشري مصر.

أجابها صوت هامس:

ـ يا بنتي سيبيها، هياكلها حد محتاجها أكتر من أمك.

بدأ صوت البنت يميل إلى البكاء وهي تقول:

ـ لا يا با، عاوزة أخذها لأمي.

أسقط في يد الرجل، جاءت أصوات من خلفنا تحث على سرعة النزول، انحنى الرجل ليحضر العلبة الفارغة، نزلا من السيارة، وقف ينظر إلى علبة الكشري في حيرة، نزلت خلفهما، اقتربت منه في ابتسامة واسعة... وهو يمسك ابنته في يد والعلبة في اليد الأخرى، ناديته:

ـ يا حاج.

نظر إليَّ في دهشة، عاجلته قائلًا:

ـ أنا ما أكلتش حاجة طول النهار، وما فيش حد بيبيع أكل هنا. ممكن تديني علبة الكشري اللي معاك؟

أجاب الرجل على الفور وهو يعطيها لي:

ـ طبعًا يا أستاذ، اتفضل.

نظرت إليَّ البنت في خيبة أمل شديدة.

انحنيت واضعًا يدي على كتفها وأنا أقول بحنان:

أبوكي راجل كريم يا بنتي، يا ريت كل الناس زيه. ربنا يبارك لك فيه.

تحولت خيبة الأمل على وجهها إلى فخر شديد، غمغم الرجل بمزيج من الشكر والدعاء، وافترقنا وعلى وجوهنا ـ نحن الثلاثة ـ ابتسامة واحدة.. وإن اختلفت أسبابها في قلب كل منا.

حزام الأمان

راضٍ عن نفسه.

ذلك حال الدكتور أمين وهو يقود سيارته عائدًا إلى منزله بعد يوم عمل طويل.

آخر الأسبوع، أو يوم الآخرين كما يحب أن يسميه. يوم يذهب إلى عيادته الشعبية التي بدأ فيها منذ عشرين عامًا. وقتها كان ينتظر كل قرش يأتي منها، أما الآن فكشفه مجاني، وغالبًا ما يعطي أكثر من نصف المرضى مقابل دوائهم.

يخرج من يوم الآخرين خالي الوفاض، إلا أنه يجد راحة لا يستشعرها في أيامه التي ينهيها بمئات الجنيهات من عيادته الأخرى أو مستشفاه الخاص. فسر ذلك لولده ذي التسعة عشر عامًا بأنه يضرب عصفورين بحجر واحد، يدفع زكاة نجاحه لله، ويرد ديونًا لأناس استأمنوه على أنفسهم وقت كان يحتاجهم أكثر مما يحتاجونه.

كان يقود سيارته على يمين الطريق السريع، بالطريقة التي قاد بها حياته بهدوء. عيناه مسلطتان على الطريق نصف المظلم، كلما مر بجواره واحد ممن يسابقون الريح، هز رأسه في قلق داعيًا لأولاده ولنفسه بالسلامة.

لفت نظره شيء مكوم أمامه عن بعد، مال إلى الأمام وهو يمسح زجاج سيارته النظيف في حركة عفوية ليتحقق مما يراه. سقط ضوء السيارة عليه، فساوره بعض الشك الذي تأكد وهو يمر إلى جوار الكومة. إنه إنسان.

ضغط الفرملة في انزعاج، مد يده اليمنى إلى المقعد الذي يجاوره ممسكًا حقيبة أدواته، فاتحًا الباب في نفس اللحظة تقريبًا. حاول أن يقفز خارجًا من السيارة. اندهش عندما وجد نفسه مثبتًا في مقعده بقوة. تذكر أنه لم يحل حزام الأمان، تحسس مكان الألم في صدره من جذبته القوية. وضع الحقيبة باحثًا عن مربط الحزام. أزعجه صوت السيارات المارة إلى جوار الباب المفتوح في تلاحق دون أن تتوقف. أغلقه ونظر في المرآة إلى الجسد الملقى خلفه.

ـ كم مر عليه من الوقت؟ كثيرون رأوه قبلي ولا شك، عديمو الضمير، أم أنا عديم العقل؟

تصلبت يده حول الحزام: لماذا لا يكون فردًا من عصابة؟ الباقون ينتظرون أول أحمق سينزل. يأخذون أموالي وسيارتي. وقد يقتلونني خشية أن أعرفهم.

أدار المحرك في اضطراب. مد يده ليتأكد من أقفال الأبواب، وبدأ يتحرك في سرعة. نظر إليه وهو يبتعد في المرآة، بدت منه حركة واضحة جعلت الطبيب يتوقف مرة ثانية.

ـ لو أنه جريح فهو ما زال حيًّا، إلى متى؟

ـ قد يكون جرحه بالغًا. حياة البشر غالية.

ـ وحياتي أيضًا.

ـ لكنني في أمان ما دمت في داخل سيارتي.

رجع بسيارته إلى الخلف، تجاوز الجسد الملقى ببضعة أمتار، استخدم أقوى أضوائها. نظر يمينًا ويسارًا. لا مجال للاختباء؛ فالأرض منبسطة حوله. اقترب منه. أفزعته بقعة الدماء التي تتسع ببطء تحت الجريح. أخرج يده من النافذة مشيرًا للسيارات المارة.

ـ لماذا لا يتوقفون؟!

ـ يتجنبون متاعبَ هم في غنى عنها، وأنا أيضًا.

ـ لماذا لا أطلب الشرطة وأخبرهم بالحادث، وأنني سأساعده؟

ـ هل سيصدقونني؟

ـ كم من المتطوعين أصبحوا في عداد المتهمين أيامًا طويلة.

جاءه الحل. أمسك هاتفه المحمول طالبًا اللواء حازم، ابن عمه. حكى له في عجل.

ـ لا تقلق يا أمين.. أين أنت؟ سأرسل سيارتي الشرطة والإسعاف بعد لحظات. تساعده؟! كأنك لم تره. إذا جاءوا ووجدوك فلن أستطيع أن أساعدك.

غمغم الرجل حامدًا الله وهو يدير المحرك لينصرف. حاول أن يتنهد في ارتياح فخرجت أنفاسه متقطعة.

ـ أديت ما عَليَّ.

ـ إنسانًا أم طبيبًا؟ إنه ينزف وكل دقيقة لها ثمن.

ـ وقتي أنا أيضًا وكرامتي لهما ثمن.

ـ أيهما أغلى: حياته، أم بضع ساعات تثبت بعدها براءتي؟

ـ سأرى في تلك الساعات ما لم أره في حياتي.

ـ نسيت القسم المعلق في الإطار الأنيق: (أن أصون حياة الإنسان في كافة أدوارها، في كل الظروف والأحوال).

ـ كنت أظنه يعني ظروف المريض!

ينظر إليه مرة أخرى. شاب ولا شك. قد يكون في عمر ولده. يزعجه هذا الخاطر. كم كان سيضحي لو أنه ابنه؟ أوليس لهذا المسكين أب مثله، وأم تنتظر عودته الآن؟

ضغط زر الحزام محررًا نفسه في عنف. أخذ حقيبته ونزل جاريًا إلى الجريح الذي مد إليه يده في ضعف حرك في قلب الطبيب لأول مرة شعور خزي المقصرين.

يكاد يكون فاقد الوعي.. هزه في رفق.

ـ ما الذي حدث؟

أجاب بصوت خافت: سيارة، صدمتني وجرت.

ـ أمسك بذراعه ليقيس نبضه. ضعيف جدًا.

ـ كم مضى عليك هنا يا ولدي؟

ـ لا أدري. ساعات طويلة.

يهزه مرة أخرى، يجب ألا يغيب عن الوعي.

ـ تحدثْ معي يا ولدي.

يبحث عن مصدر النزيف. كسر مضاعف في ساقه.

ـ لا تخفْ، ثوانٍ وأوقفه.

بقعة الدماء أكبر مما يتصور، في داخله شيء يريده أن ينهي عمله سريعًا ليرحل قبل أن تأتي الشرطة.

يخرج الرباط من حقيبته. يسأله:

ـ ما اسمك يا ولدي؟

صوته لا يكاد يسمع، لم يهتم باستبيان الاسم.

ـ كم عمرك؟ يكرر سؤاله مرة أخرى، يهزه بعصبية. لا يجيب. يبحث عن نبضه في هلع لم يعهده في نفسه منذ كان حديث التخرج. يدلِّك صدره في عجل وهو يهمس في رجاء:

ـ يا رب. أعطنا مهلة أخرى.

في مساء اليوم التالي عندما كان في مستشفاه يحكي عن التأنيب الذي تلقاه من اللواء حازم بعدما أخرجه من قسم الشرطة في الصباح، ضحك معه ولده في سعادة وحب. ومنحه الجريح وأبواه نظرة امتنان، أعادت لنفسه ما كادت تفقده إلى الأبد.

زوج

لم أعدْ أطيقه.

أكرهه بعدد الساعات التي قضيتها معه، بوزنه الذي يزيد كل يوم، بمشيته التي يجرني فيها جرًّا، وكرشه الذي يمتد إلى مالا نهاية.

أكثر ما أكرهه فيه رائحة قدميه، أعلم أننا بمرور الأيام قد امتزجنا فلم يعد من السهل التفريق بين روائحنا. تعجبت عندما قالت أمه عني إنني أسبب له رائحة كريهة، يا للحماقة. ما أنا سوى زوج حذاء قُدِّر له أن يكون تحت ولدك، لست أنا من يفرز الروائح ولا أنا من يتجاهل تغيير جواربه على مدى أسابيع، وما خفي كان أعظم.

على جلدي من عشرته تجاعيد وشقوق تفوق عمري بمراحل. يركل بي أحجار الشوارع، يخوض بي برك الماء الصغيرة، ويثني كعبي في كل أيام العمل، داخلًا بي دورة المياه بحجة الوضوء لصلاة الظهر التي لم يصلها قط، عندما سأله أحد زملائه عن التشققات البادية عليَّ، أجابه: صناعة رديئة.

في المواصلات العامة، يلاصق بي أي حذاء نسائي، أكاد أتمزق خجلًا. تعذرني الأحذية، تتأذى من رائحتي وإن

حاولت إخفاء ذلك. لحظاتي السعيدة عندما توبخه إحداهن بشدة، أسعدها على الإطلاق يوم صرخت تلك السيدة وضربه زوجها الذي كان يقف على بعد خطوات، برغم أنني أصبت ببعض ما أصابه.

كل من حولنا يكرهني بسببه. زوجته التي كنت أظن أنها ستكون أكثر الناس إدراكًا لوضع نتشارك فيه، أو إشفاقا عليَّ مما ابتلتني به. تنظر إليَّ بازدراء، تمسكني كل ليلة بأطراف أصابعها في تأفف شديد، تلقيني أمام باب الشقة في عنف، وتصفع الباب. أذكر أنها بصقت عليَّ عدة مرات. لا أكرهها وإن كنت أعجب لها. آه.. لو أن لي قدرتها على الحركة. أصفعه على وجهه بنعلي عشرات المرات، أنقر رأسه بكعبي، ثم أجلده برباطي إلى أن أشفى غليلي منه، واتركه إلى الأبد.

كنت مستقرًّا على أحد الرفوف الرئيسية في المتجر، إلى جواري شبيهي البني اللون، دخلتا علينا هي وشقيقتها ينبعث منهما بريق الشباب وحيويته. لحظتها تمنينا أن لو كنا أحذية نسائية، فوجئت بها تقترب مني، تمسحني بأناملها الرقيقة. همست: جميل سآخذ الأسود، وأخذت أختها البني.

وضعت إلى جواري في الصندوق بطاقة معايدة معطرة. ظننت أن الحظ ابتسم لي. أهدتني له أيام كانا مخطوبين.

مع أول لقاء لنا أدركت أنني سأعاني معه. أخذني منها في لا مبالاة. لم يحاول حتى أن يفك رباطي قبل أن يحشر قدمه داخلي حشرًا، ظهرت أولى تجاعيدي. ضيق عليه ولا شك.. سيردني.

أدهشني عندما وقف ليدق مقدمتي في الأرض عدة مرات ليُحْكِمَ دخول قدمه التي لا تناسبني، ثم قال في سماجة:

ـ لا بأس.

أحذيته السابقة كانت في مثل حالي الآن، استبدلني بها على الفور، أصبحت ويالتعاستي، حذاءه المفضل.

لا أملك سوى التسليم بقدري، لكن اليوم عندما زارتنا شقيقتها وزوجها. كان يرتدي شبيهي، رفيق الـرف. تفوح منه رائحة الدهانات الفاخرة، ولا توجد عليه أي من تشققاتي. لمعته تماثل البريق الخارج من عيني زوجته. لحظتها، تأكدت أن مالكي.. قدمه نحس عليَّ.

العزف.. بأصابع قصيرة

يجلس أمام البيانو الأبنوسي الأنيق، على وجهه علامات ألم بالرغم من غنائه. تحيطه غابة أشجارها تعاني قسوة الخريف. فراشة رقيقة تطير نحوه بالرغم من الشبكة التي تحيطها، تمسك طرفها يد معروقة أصابعها طويلة وأظافرها حادة. خلف الأشجار العارية ترقبه عيون عاجزة تلمع بالدموع. عيناه معلقتان بساعة حديدية، عقاربها كبيرة، بندولها على هيئة نصل حاد.

ـ أنتما طالقان.

قالها بضحكة جريحة. اختفت سريعًا وهو يؤكد يمينه متشفيًا:

ـ أنتِ طالق.

يوم تقدم للزواج منها، بدا له أنه سيعاني من تلك الأم. والده أبدى تخوفه وهو يمسح على لحيته البيضاء الرقيقة:

ـ عائلة طيبة لولا تسلط الأم.

يجيبه بصوت رومانسي مليء بالحيوية:

سأتزوجها هي لا أمها.

أثناء الخِطْبة، بدا واضحًا أن طلباتها تميل نحو المستحيل. لم يكن فاحش الثراء، لكنه كان يملك ما يكفي ليحرجها أمام الجميع. وافقت على مضض عندما رأت حزن ابنتها، الهمسات الصادرة من زوجها وشقيقته، وإن أسرت في نفسها حواره الحاد معها.

من الليلة الأولى ظهر له جليًّا أن زوجته تابعة لها، تحكي لها كل ما يحدث بينهما. ثورته كانت تفوق دهشته عندما سمعها تحكي عن لقاءات خاصة، يستحي كلاهما أن يعيد تفاصيلها على الآخر.

كان يشعر بيدها الخفية تشاركه الإمساك بدفة بيته، تجذبها دائمًا في اتجاه يخالف ما يريده. تحدث مع زوجته مرارًا بلا فائدة. زياراتها كانت تمثل عبئًا عليه، تنقض عليهم كما لو كان معها إذن تفتيش. تجيل عينيها في أنحاء البيت مبدية ملاحظات كان يراها مليئة بالفضول. عقب ذهابها يتنهد في ارتياح، تفاجئه الزوجة بعد لحظات بتكرار ما قالته أمها، غضبه العارم يزيده لجوؤها إلى الهاتف شاكية لها.

فرحته بالحمل أفسدها قرار من الأم بنقلها إلى بيتها. رفض بإصرار، تفاقمت المشكلة. أرغمه على الرضوخ سوء حالة الزوجة صحيًّا، والتي أرجعها الطبيب إلى ضغوط داخلية. هز رأسه رافضًا:

ـ بل خارجية.

فترة حملها كانت أسوأ ما رأى منذ زواجه، مضطر للذهاب إلى الأم على أرضها؛ ليسمع كل يوم نقدًا جديدًا. تحمله صابرًا، وإن أقلقه تغير في صفات زوجته، سلبيتها تتجه إلى إيجابية في اتجاه مضاد له تمامًا.

تأكد له ذلك عندما أصرت على تغيير الاسم الذي اتفقا عليه لابنتهما إلى اسم الأم:

ـ تكفينا (رحمة) الكبرى!

آلام زوجته أثناء المخاض، نصيحة أبيه أن هذه فرصة لكسب حماته، جعلاه يعود من مكتب الصحة حاملًا شهادة الميلاد في سعادة، يريها لزوجته وأمها، تقبله الزوجة في ضعف. ترتسم على شفتي الأم ابتسامة نصر ساخرة.

عودتها بعد شهرين كانت صعبة، المشاكل تتزايد بتدخلها المستمر، سلواه كانت في ابنته الرقيقة، منحها كل الحب الذي في داخله، فلم يعد في قلبه شريك لها.

تكبر أمام عينيه، لأول مرة يرى كيف تخط السطور الأولى من الحياة، كل يوم تريه جديدًا، تبتسم، تضحك، تجلس، تمشي. نغمات تضاف إلى بعضها لتكون لحنًا يهز فؤاده فرحًا في كل لحظة. النشاز الآتي من الأميْن يتزايد. الأيام تمر، صبره يكاد ينفد، كلما نوى الطلاق، أوقفته نظرات الصغيرة. اختيار المدرسة حرب جديدة. فالأمر جاء محددًا لمدرسة مجاورة لبيت الأم. لم يكترث لذلك. عندما ذهب إلى هناك اكتشف الخدعة. المبلغ المطلوب سنويًّا يساوي دخله أو يتجاوزه قليلًا.

ـ أمي ستدفع النصف.

يحدق فيها مذهولًا وهي تأخذ حقيبتها مغادرة المنزل؛ احتجاجًا على رفضه الذي تراه غير مبرر.

كل محاولات إقناعها باءت بالفشل، يتفقان معًا، تعود له بعد لحظات برأي جديد. لم يبقَ سوى الطلاق.

فوجئ بعد كل هذه السنوات أنه لم يعرف قدرات الأم الحقيقية. قضايا جديدة كل يوم كالتي كان يضرب كفًّا بكف وهو يقرؤها في الصحف. الشقة أنقذها منها أنها لا تزال باسم والده، يجلس فيها محدقًا في كل ركن كانت تلهو فيه الابنة، يستجدي أحلام اليقظة والذاكرة ليراها مستعينًا بقطعة من ملابسها يستنشق منها رائحة براءتها المظلومة. عجزه عن رؤيتها شهورًا طويلة يكاد يذهب عقله.

بكى فرحًا أمام المحامي عندما أخبره أنه حصل على حكم الرؤية، أوضح له بعد قليل أن الوقت المحدد له ثلاث ساعات أسبوعيًّا بمراقبة من الطرف الآخر، فبكى مرة أخرى لاعنًا واضعي القانون.

قلبه يخفق بشدة، اللقاء الأول بعد ستة أشهر. ناداها بشوق عندما دخلت تتعثر إلى قسم الشرطة الذي أصرت الجدة على أن يلقاها فيه. تمسك بيد جدها في قلق. ما إن رأته حتى أطلقت صرخة عالية تبعها بكاء هستيري.

مد يده ليربت كتفها:

ـ أنا بابا يا رحمة.

ترتعد في خوف ظاهر. يتسمر في مكانه عاجزًا مع تعالي الصراخ. يعض الجد شفتيه في أسى:

ـ غَنِّ لها يا ولدي؛ فهي تحب الغناء.

ترتعش شفتاه، يتذكر بصعوبة ما كان يغنيه لها:

ـ ذهب الليل، وطلع الفجر..

يختنق صوته بالبكاء، تسيل دموعه غزيرة. يسكت بكاؤها فجأة، تقترب منه في دهشة، تمد يدها الرقيقة في تردد لتمسح دموعه:

ـ أتبكي مثلنا؟

يواصل الغناء دون أن يجيب. لأول مرة يعرف القيمة الحقيقية لحلاوة صوته، طالما غنى لأصدقائه أيام الجامعة. اليوم غناؤه يخرج بقطع صغيرة من قلبه.

بنهاية الميعاد كانت تنام على صدره. أخذها الجد في رفق، معتذرًا عن أنه لا يستطيع أن يتأخر. ينظر إليه في فهم وامتنان.

حياته أصبحت انتظارًا ليوم اللقاء الصغير، واليوم الكبير عندما تنتقل الحضانة إليه.

كل أسبوع يذهب إليها بأغنية جديدة. اشترى لها سلسلة ذهبية عليها صورته، طلب منها الجد عندما رآها أن تخفيها عن أُمَّيْهَا. لم يجدها في الأسبوع التالي. اشترى لها واحدة أخرى، وأخرى، وأخرى. توقف عندما عادت له الطفلة بكيس ورقي يحوي هداياه جميعًا. في داخله ورقة بخط الجدة: وفر نقودك.

اكتفى بالغناء. تسمعه باهتمام وشوق، أغانيه تكبر معها، عندما طلبت منه أن يغني لها أغاني أم كلثوم؛ ابتسم وهو ينظر إلى جسدها النامي في سعادة وفخر.

لم يفكر في الزواج مرة أخرى. يكره كل النساء عدا ابنته وأمه. صدمته كانت عنيفة عندما سمع قانون رفع سن الحضانة. يتساءل عن عدل لا يساوي بين شريكين بالنصف؛ فيعطي أحدهما كل شيء، ويعطي الآخر ما يقل عن الفتات. عزى نفسه في المرآة مطمئنًا. بضع سنوات أخرى ويكون لها الاختيار.

تَـرَحَّمَ في آلية على الجدة التي ماتت. يومها لم يغنِّ لابنته، احتضنها وهي تبكي، شاركها الدموع وهو يتذكر ما رآه منها، سائلًا نفسه عن حسابها في خجل.

كان يخطط جيدًا ليوم انتقال الحضانة. يرغبها، يستعطفها، يشهدها على ما رآه. لقاؤهما في عيد ميلادها الخامس عشر كان مليئًا بالصمت، قطعه بطلبه أن تنتقل لتعيش معه.

ـ سأبقى معها.

نظر إليها في دهشة حزينة:

ـ ألم يشفع لي هذا المعياد الذي لم أتأخر عنه يومًا طوال السنوات الماضية؟

ابتسمت في رقة:

ـ بل شفع لها كل الوقت الباقي من تلك السنوات.

ـ لو كان بيدي لأعطيتك مثلها وأكثر.

احتضنته في حب، قبلت يده، نظرت في عينيه:

ـ لمن تحكم أيها القاضي؟ لمن قدر ووفَّى، أم لمن عجز فتمنى؟

ـ أنت قاسية!

يومها غنت له هي، خايف أقول اللي في قلبي. دموعهما سالت، لكنهما افترقا على وفاق.

تغيرت حياتهما كثيرًا بعدها، اعترف أن جدتها أورثتها الكثير من قوة الشخصية، أصبح يراها كثيرًا، تقضي معه يومًا أو يومين في بيته كل أسبوع، أصبحت واقعًا في حياته، بعد أن عاشت خيالًا لسنوات.

يقف إلى جوارها في فخر، معرضها الأول. لوحاتها أثارت إعجاب الجميع. وقف ينظر إلى اللوحة التي بدت ملامحه فيها واضحة، يتفقدها بعينه مرة أخرى. يلمح قرص الشمس لأول مرة بين الأشجار العارية.

ـ أريد أن أشتريها.

يلتفت إلى مصدر الصوت فيرى سيدة أنيقة تحادث ابنته.

تخرج من حقيبتها بطاقة كبيرة، تكتب عليها بخط واضح: مهداة إلى أبي الذي علمني الفن. يتذكر السلاسل الذهبية التي كان يضع صورته عليها لتعلقها على صدرها.

يسمع صوتًا آخر:

ـ ما اسمها؟

تضع يدها على خده، تمسح على تجاعيد خلفتها السنون وهي تجيب:

ـ ذهب الليل.. وطلع الفجر.

بين الموت والحياة

اختفاء آخر؟ لم تعد مفاجأة.

قريتنا تتشح بالسواد. لم يعد هناك بيت إلا فقد واحدًا من أحبابه. الخوف يسيطر على الجميع. الأمهات يمنعن أبناءهن من الخروج بعد غروب الشمس. الكل يعلق على صدره آية الكرسي أو الصليب. والشفاه تتمتم طيلة الوقت بما لا تسمعه، وإن كنت تدرك فحواه.

أول من اختفى صديقي صالح. عدت إلى القاهرة فلم أجده ينتظرني في محطة القطار كما اعتدنا على مدى سنوات دراستي في كلية الهندسة. تعجبت لأنني كنت أتوقع منه احتفالًا بتخرجي، يبدؤه في محطة القطار. سألت أخي عنه. هز كتفيه وهو يجيب: فص ملح وذاب.

عرفت بعد ذلك أنه خرج من بيته ليتجول في المساء كما اعتاد، لكنه لم يعد قط. اهتزت القرية لاختفائه؛ فهو محبوب من الجميع. تهامس البعض عن ثأر قديم مع عائلته. وتساءل العمدة عن علاقة اختفائه بضياع خاتم زوجته، عندما رأى نظرات المحيطين، أردف بابتسامة صفراء: إن بعض الظن إثم.

أخوه الأصغر لاقى نفس المصير بعد أيام قليلة أثناء تجوله في القرية ليلًا بحثًا عنه. تأكدت نظرية الثأر. كبير العائلة المتهمة أقسم للجميع إنه لم يكن ليطلب ثأرًا تم الصلح فيه من سنوات. تأكيدًا لقسمه، جمع خيرة شباب العائلة للبحث عن آثارهم. انتهى البحث في اليوم الثالث باختفائهم جميعًا. أيُّ قوة تلك التي تبتلع ستة رجال أشداء في نفس الوقت؟!

خيم الرعب على الجميع. أصبحت مسالك القرية مهجورة تمامًا في المساء. الكل يخاف إلا قليل من الذين يتحصنون بالعلم أو الإيمان أو كليهما معًا. حتى هؤلاء لم يسلموا من تلك اللعنة المجهولة. فكل من تسول له نفسه البحث ليلًا في أنحاء القرية لا يعود بعدها أبدًا.

أسقط في يد العمدة، حكى لنا أنه اضطر لإبلاغ المأمور، برغم أنه اعتاد أن يخفي عنه كل ما يجري في قريتنا. اتهمه الرجل في البداية بالكذب، عندما أصر متحدثًا عن الجنية والنداهة رماه بالجنون. في اليوم التالي، امتلأت القرية عن آخرها بقوات الأمن. فتشوا كل البيوت والحقول بحثًا عن آثار. حتى الترعة تم البحث فيها، لا شيء. زاد الرعب، وآمن الجميع بأن الأمر فوق قدرات البشر.

غادرنا رجال الشرطة بعد بضعة أيام مصحوبين باليأس، رصد العمدة مبلغًا من المال لمن يحل اللغز، وعدني شخصيًّا بأن يرد لي نصف الأرض التي اغتصبها من أبي قبل أن يموت حسرة عليها. وأن يوصي عضو مجلس الشعب ليجد لي عملًا بشهادة الهندسة التي لا تؤكل خبزًا في قريتنا على حد قوله.

لا أجرؤ على المخاطرة، مثلي كمثل أهل قريتي البسطاء. زرع فينا الخوف من القوة التي نعرفها. فكيف نواجه ما لا نعرفه؟!

ما أخشاه يقترب منا. أخي الصغير المعروف بتهوره، بدأ يحلم باسترجاع أرضنا. يحدثني عما يمكن عمله فيها؛ حياة كريمة، مطعم، مشرب، ودواء أمي الذي نشتريه شهرًا، ونعجز عنه شهورًا طويلة. أحاول أن أثنيه عن عزمه إشفاقًا عليه. يبتسم في صمت ناظرًا إلى السماء.

غياب قرص الشمس ذلك اليوم أفزعني. فأخي لم يعد حتى الآن. أتمتم بالدعاء وأجيب عن تساؤلات أمي بأنه نائم في غرفته. طول الليل يمزق قلبي رويدًا رويدًا. بطلوع الفجر تأكد الأمر لي. فعلها الأحمق.

أدور سائلًا عنه في كل مكان. مصمصة شفاه، شهقات، ضرب على الصدور، بلا جواب. يقترب مني واحد من الأطفال هامسًا بأنه رآه قبيل الغروب حاملًا سلاحه، متجهًا نحو البئر المهجورة.

أعود إلى البيت مكتئبًا. أسمع نحيب أمي عن بُعد، وصلها الخبر ولا شك. أأذهب إلى هناك باحثًا عنه؟ قد لا أعود. أأنتظر بضعة أيام؟ قد يكون حيًّا؟ ربما أصيب لسبب ما. تأتيني صرخة ملتاعة من أمي. لم يعد من الأمر بد، مواجهة المجهول أيسر من مواجهتها.

أتحصن بكل ما أجده من أسلحة. البندقية على كتفي. سكين في حزامي وعصا طويلة في يدي.

أمشي في شوارع القرية. السكون يخيم عليها. أصوات صفير

الرياح وحفيف الشجر تتداخل مع نباح الكلاب في لحن مخيف. أتذكر أيام كانت هذه القرية تعج بالحياة وراحة البال طيلة الوقت. ألعن اليوم الذي ورث فيه ذلك الرجل العُمُدِيَّة. منذ رأيناه والمصائب تتواتر علينا بين الفقر والظلم. سلب الأراضي وانتهاك الحرمات. كل شيء في قريتنا أصبح باهظ الثمن، حتى الكلام عما نعانيه جميعًا. صمتنا كان تجنبًا للعنته. أتنهد متسائلًا: هل هناك لعنات يصبها الله على الصابرين؟

أقترب من البئر ناظرًا حولي في قلق. أجيل نظري في الظلمة الموحشة، لا شيء. أنادي بصوت مرتعش عليه. أتحرك قبل أن يأتيني أي جواب من قلب السكون.

تمسك بكتفي يد ثقيلة. ألتفت مذعورًا لأرى صاحبها. ابتسامته الودود ولحيته الكثة البيضاء لم تضفا إليَّ أي شعور بالأمان. أسأل في خوف:

- انسَ أم جان.

- ما الفارق؟ في الحالتين لن أوذيك؟ قالها بضحكة مخيفة.

- هل رأيت أخي؟

- يسألني في لا مبالاة:

- رأيت الكثيرين. أيهم تعني؟

يهز رأسه مستدركًا:

ـ لا بد أنك تعني شاب الأمس. إنه شاب لطيف أوصاني بك خيرًا عندما تأتي.

ـ هل أنت من يأخذهم منا؟

ـ آخذهم؟ بالطبع لا، هم يذهبون.

ـ إلى أين؟

ـ يمسك يدي بقوة.. يجذبني نحو البئر المهجورة.

أندهش لما أراه. في قاع البئر أنوار تضيء عن بُعد. تأخذني بتلألئها. أكاد أسمع أصوات موسيقى تصدر من داخله.

ـ هذه البئر مدخل إلى قرية أخرى. يكسوها النور طوال الوقت. أهلها يعملون بغير قهر ويأكلون بغير عناء.

أجيبه ساخرًا:

ـ وهم القرية الفاضلة مرة أخرى.

ـ هل العمل والطعام وهمان أيها الأحمق؟ كل ما عليك أن تقفز إلى داخل البئر لتصبح منهم.

أفكر في أمي وإخوتي الصغار، لمن أتركهم؟

يأتيني صوته كأنه يقرأ أفكاري:

ـ دعهم، فحالهم بك مثل حالهم من غيرك.

أغمض عيني مفكرًا. حلم أخي، مرض أمي، موت أبي. أتجه نحو البئر في تردد. أتوقف فجأة:

ـ ماذا لو أنك كاذب، وسأموت في قاع البئر؟

يمسك بكتفي، يهزني وهو يسأل بصوت أجش:

ـ وهل أنت حي؟

أدفعه بعيدًا وأقف على حافة البئر تتنازعني الأفكار.

راحة البال

يجلس أمامها ساكنًا، لا يستطيع أن يحول عينيه عنها، ينتظر أي حركة تمنحه الأمل.

عندما دخلت حياته، كان هادئًا مستقرًّا. الصديق الذي قدمها إليه، أخذ يعدِّد له محاسنها كل يوم، يشرح له النقلة الكبيرة، المتعة التي ستضاف إلى حياته الراكدة. تعجب من إلحاحه الزائد. علَّله لنفسه أنه يحتاج إلى من يمشي معه في نفس الطريق.

ـ عندي زوجة وأولاد، لست مثلك.

الإغراء يتزايد. رفضه كان أضعف في كل مرة إلى أن انزلق معه.

حياته تغيرت بالتدريج. تشغل حيزًا كبيرًا منها، لم يعد يستطيع التركيز في شيء سواها، جاذبيتها أشد من مقاومته. ليس أول من يسقط في حبائلها. يومًا تعطيه وأيامًا عديدة تأخذ منه. يكاد يجن، في المساء يتخذ قرارًا بأن يقطع كل علاقة له بها. يمسك بالهاتف. يستجمع شجاعته، يفكر مرة أخرى، يضع السماعة لتتواصل قصته.

زوجته وأبناؤه يتعجبون من تغير طباعه، شروده دائم، حديثه الهامس في الهاتف لا ينقطع، جلوسه أمام (الكمبيوتر) ساعات

طويلة. لم يعد من السهل الحديث معه، فمزاجه متعكر دائمًا. يسألونه عما يشغل باله، فيتعلل بمشاكل العمل.

يتمنى لو يجمعهم ليعترف لهم بخطئه ليستريح، يطلب منهم المعاونة في الانسحاب، لكنه لم يَعْتَدْ ذلك.

نقوده التي تأخذها تحت مسميات مختلفة لا تنتهي، لأول مرة يطالب زوجته التي لم تكن مسرفة قط بالاقتصاد. تجيبه ساخرة:

- ابحثْ عن نقودك في مكان آخر.

يصرخ فيها غاضبًا، يدخل غرفته صافقًا الباب.

أيامه تمر، إدمانها يتزايد، تغضبه فترضيه، ثم ترضيه لتغضبه. في ذلك اليوم، جلس مضطربًا كالمعتاد، دقات قلبه تتعالى. عيناه مليئتان بالأمل. لا يصدق ما يراه. هذه المرة أصابه السهم في مقتل.

يجلس مكانه بلا حراك، يسمع صوت زوجته تجيب على الهاتف:

- إنه جالس أمام الشاشة كالمعتاد يتابع حركتها. الخسارة فادحة.

لا يهم، فليست أفدح من فقده... لراحة البال.

اللحم المر (١)

ـ موظف محترم!

رددها عزوز لنفسه، ارتسمت على شفتيه نفس الابتسامة الساخرة التي رآها على وجه زوجته، عندما قالها لها منذ ما يقرب من ستة أشهر. يومها طلبت منه أن يضاف اللحم إلى الفول والطعمية والعدس ولو لمرة واحدة شهريًّا، بعد أن تحولت إلى مقررات يومية مفروضة عليها وعلى أبنائها الثلاثة.

اتهمها بعدم التقدير، راتبه يغطي الوجبات المعتادة بصعوبة، بإضافة مصروفات البيت وتعليم الأبناء يحتاج الأمر إلى حسابات معقدة. ردت عليه بأنه خائب، زوج جارتها اشترى زيًّا كالذي يرتديه هو في عمله كل يوم، يلبسه ويخرج في الصباح ثم يعود لهم محملًا بكل ما لذ وطاب.

إجابته جاءت غاضبة:

ـ نصاب. يرتدي زيًّا لا يخصه ليستجدي الناس.

يحترم عمله، يبتسم فخورًا عندما يسمع إمام المسجد يقول إن النظافة من الإيمان، معتبرًا أن الحديث يخصه شخصيًّا.

عادة ما يستعد لعمله قبل ميعاده بساعة على الأقل، يرتدي سترته التي يغسلها بنفسه يوميًّا في الصيف، يتفقد حال خوص البلح الموجود في مكنسته متأكدًا من كفايته، ينطلق إلى الشوارع التي يعلم أنها تحتاجه، متجاهلًا الميادين العامة والتقاطعات الرئيسية التي يتعجب عندما يجدها مليئة بكناسين لا يعرفهم.

ابنته الكبرى تزوجت منذ عامين، زارتهم منذ فترة حاملة كيسًا مليئًا باللحم البقري الفاخر. قَبِلَ هديتها على مضض. عندما عاودت الكرَّة بعد أيام قليلة، رفض في خجل يغلفه الغضب. أكد لها اعتراضه على أن يصبح زوجها مسئولًا عن إطعام أبنائه، بدأت زوجته في مقارنة جديدة. أوضح لها في هدوء أنه يعلم أبناءه ليصبحوا مثل هذا الشاب الأنيق الذي يعمل موظفًا بشهادة الثانوية العامة، يرتدون قمصانًا أنيقة وربطات عنق طالما تساءل في نفسه عن طريقة ربطها، استدرك سريعًا وهو يشير بسبابته، مؤكدًا أنه لن يقبل للذكور بأقل من التخرج في الجامعة.

استرجع عزوز ذلك الحوار وهو يخرج من مطعم الفول مطأطئ الرأس، اكتشف أن الوجبات المعتادة أصبحت تساوي ما يفوق راتبه، حتى بعد أن ضم كيلو العدس الذي كان يمثل تغييرًا في القائمة إلى صفحة الأحلام مع اللحوم والدواجن.

الأسعار تتزايد كل يوم. في البداية كان يسخر من البائعين، عندما يحدثونه عن ارتفاع في أسعار الدولار الذي لم يره من قبل، والبنزين الذي لم يعرف سعره يومًا ما. خرجت من فمه المليء بالخبز الجاف ضحكة ساخرة وهو يحكي لأبنائه أنهم أخبروه أن

أسعار الحديد هي سبب زيادة سعر الرغيف، أمرهم متهكمًا أن يحافظوا على المسامير التي يجدونها في الخبز؛ فقد تساوى ثروة بعد أيام قليلة.

يشعر بالخطر، المشكلة تجاوزت حدود ما كان يراه رفاهية، بحسبة صغيرة وجد أنه بالكاد قد يطعم بيته نصف الشهر. شعر بغصة في حلقه ودوار جعلاه يجلس على حافة الرصيف. شعوره بالعجز، وصورة أبنائه يتضورون جوعًا يعتصران قلبه. يسأل نفسه بصوت مسموع عما ينبغي عليه فعله. يخرجهم من التعليم مبكرًا كما حدث معه؛ ليعانوا ما تظاهر كثيرًا أنه لا يعانيه. ينفض الفكرة عن عقله في هلع. يبحث عن عمل آخر. نظام النوبات في عمله يجعل انتظامه مستحيلًا. يتنهد في أسى مقاومًا الدموع التي تكاد تقفز من عينيه.

انتبه إلى السيارة الفارهة التي توقفت إلى جواره، نافذتها فتحت وامتدت منها يد نسائية بخمسة جنيهات. تردد في الرفض لأول مرة.

ـ خذ. لا تتحرج.

يأخذها وهو يتلفت يمينًا ويسارًا، يضعها في جيبه. يشعر بها تلسعه لسعًا. صورة أبنائه التي تراقصت أمام عينيه جعلته يتنهد قائلًا:

ـ والله مضطر.

يتحرك صوب المطعم مرة أخرى، ليزيد الطعام بمقدار يشبع الجميع. يمر أمام الجزار، يسمع سعر كيلو اللحم فيفزع. ينظر إلى الجنيهات الخمسة مترددًا مرة أخرى. ينطلق إلى الميدان الكبير. يمسك مكنسته لينبش بها التراب غير مكترث بما يفعله. تتوقف

إلى جواره إحدى السيارات، يحاول أن ينطق بالجمل التي طالما سمعها فمطَّ شفتيه باحتقار. تمتد إليه يد ببعض الجنيهات؛ الأمر أسهل في كل مرة من سابقتها.

يدخل بيته مساءً حاملًا اللحم والزيت والمكرونة، على وجه زوجته سعادة لم يرها منذ سنوات. الأبناء يأكلون في نهم وهو يرقبهم في صمت. تمد زوجته يدها في اتجاهه بقطعة شهية، يضعها في فمه ويمضغها ببطء:

ـ بالهناء والشفاء يا سيد الرجال.

يتوقف عن المضغ عندما يسمعها، يجد في فمه مرارة. يذهب إلى الحمام، ينظر إلى نفسه في المرآة المشروخة باحتقار، يبصق ما تبقى منها في فمه، يضرب وجهه ببعض الماء؛ عَلَّه يمنحه القدرة على مواجهة الغد.

اللحم المر (٢)

في اليوم التالي، بدأ عزوز يومه في الميدان مباشره، تنساب من فمه الكلمات التي كان عاجزًا عن نطقها.

الحصيلة تتزايد. شَعَـرَ بلكزة في جنبه فالتفت فزعًا، زميل في الزي لم يره يومًا في هيئة النظافة، يخبره بصوت أجش:

ـ المعلم يريد أن يراك.

يقبض على ذراعه ويجره قبل أن يسمح له بأي أسئلة.

يجد نفسه جالسًا على المقهى أمام رجل مخيف. يرتدى جلبابًا بلديًّا وعمامة كبيرة، ينفث دخان الشيشة من بين أسنان يكسوها مزيج من الصفرة والسواد.

ـ من أنت؟

ـ كناس الحكومة.

ـ ما الذي أتى بك إلى منطقتي؟ قالها بصيحة مفاجئة وهو يدب على المنضدة.

يجيبه في رعب، يحكي له حكايته، فيهز الرجل رأسه متفهمًا.

ـ سأسامحك لأنك لا تعلم، ولأنني أحتاج إلى وجوه جديدة. لكن يجب أن تعرف أن كل شيء هنا بنظام. سآخذ منك خمسين جنيهًا في اليوم، والباقي حلال عليك.

يعترض على المبلغ الذي يراه كبيرًا.

ـ هذا المبلغ ليس لي. جزء منه لحمايتك، ولشراء بعض الكراسي المتحركة وطباعة بطاقات صم وبكم لزملائك. كما أنك ستتسلم نصيبك من الحصيلة يوميًّا، حسب الرزق. على أي حال، هذا هو نظامنا، تقبله، أو تذهب حيث لا أراك مرة أخرى.

يهز رأسه موافقًا في استسلام، يقف استعدادًا للعمل، يجذبه فجأة من ملابسه في عنف:

ـ ما الذي تلبسه؟ كيف تعمل بهذه الملابس؟

يشير إلى أحد رجاله الذي يأخذه خلف المقهى. يسكب على ملابسه ما تبقى من رماد الفحم مع القليل من الماء، يدعكهما في ملابسه. يحاول أن يعترض فتسكته يد الرجل الخشنة التي تمتد إلى وجهه وشعره الأبيض لتضيف باقي اللمسات. ينظر إلى ما فعله في إعجاب، يمد يده إلى الأرض ليستكمل ما تبقى ببعض الطين.

تغير عزوز بعدها كثيرًا. الطعام الذي تأتي به ابنته لم يعد مرفوضًا، يأكل منه ينهم وعلى وجهه ابتسامة راحة لا يعرفها كل يوم. لم يَعد يكثرث بخوص المكنسة ولا بالشوارع الجانبية. نظافته الشخصية أصبحت تتعارض مع مصلحة العمل. زوجته التي تعجبت من تغير رائحته لم تجرؤ على الاعتراض؛ فقد كانت تكره الأيام القديمة بكل ما فيها.

العمل مع المعلم كان منظمًا جدًّا. يذهب إلى المقهى في الصباح ليعرف مكان توزيعه، فمشرف الهيئة الذي كان قاسيًا جدًّا عليه لم يعد حتى يبحث عنه، يكتفي بالجنيهات العشرة التي يأخذها منه كل بضعة أيام على أنها هدية مقبولة.

في المساء يسلم المال ويتسلم نصيبه من الحصيلة العينية؛ لحوم نيئة أو مطبوخة، خزين البيت، ملابس جديدة أو مستعملة، كل يوم حسب ما يأتي.

وضعه ككناس حكومي جعله مختلفًا. لم يقبض عليه قط كما كان يحدث مع زملائه، أصبح من المفضلين لدى المعلم الذي كان يرى فيه شيئًا يختلف عن كل الآخرين، وصفه له يومًا وهو يجلسه إلى جواره:

ـ أنت قنوع.

فأجابه بابتسامة مليئة بحسرة ساخرة.

عندما بدأت حصيلته تتناقص، طمأنه المعلم أن ذلك شيء طبيعي؛ لأنه أصبح مألوفًا في المنطقة. أخبره أنه سينقله إلى أفضل منطقة عنده. لأنه يحبه، فقَبَّل عزوز يده في امتنان.

في اليوم التالي، كان يقف على رصيف محطة القطار. بزيه الرث ومكنسته التي لم يبقَ من خوصها الكثير. اكتشف ما كان يعنيه الرجل بأفضل المناطق. فعلى الرغم من أن ما يأخذه من كل زبون أقل بكثير فإن كثرتهم، وانتظارهم الذي لم يكن منه بد، جعلا الحصيلة تتضاعف كثيرًا.

اقترب دون أن يرفع رأسه وهو يتظاهر بالكنس، من ذلك الرجل الذي يرتدي معطفًا أنيقًا، يحمل حقيبة تبدو باهظة الثمن. توقف فجأة وأدار جسده إلى الجهة الأخرى في فزع عندما سمع صوت الشاب الذي ظهر فجأة ووقف يتحدث معه. زوج ابنته، تمالك نفسه في لحظات. سيخبره أنه نقل إلى هذا المكان. قذارة ثيابه تجعله يتمنى ألا يراه.

يحاول الابتعاد ببطء. يسمع صوته هامسًا:

ـ أنا محامٍ من الإسكندرية، سرقت حافظة نقودي، لو تسمح..

يرفع رأسه ليرى الرجل ينفحه عشرين جنيهًا بابتسامة متفهمة. يعطيه الشاب بطاقة أنيقة وهو يقسم إنه سيرسل له النقود، يلقيها الرجل بعد انصرافه السريع.

ينحني ملتقطًا البطاقة، يقرأ ما فيها من بيانات كاذبة، يتذكر زوجته وكلامها فينفجر ضاحكًا بصوت مشروخ والدموع تلمع في عينيه.

في المساء، جلس يشاهد أبناءه وهم يأكلون اللحم الذي أرسله زوج ابنته معها. تتعلق عيناه بالحفيد الرضيع، يغمضهما على دموعه الساخنة، وهو يدعو له أن يجنبه الله أكل هذا اللحم عندما يكبر.

دفاع غير شرعي عن النفس

تلتقط أنفاسها بصعوبة بعد انصرافه.

مثل كل مرة، الجلسة الثقيلة على قلبها، الحلوى والعصير البارد، نظرات الأم تحثها على القبول، خيبة الأمل المرتسمة على وجه الأب تؤكد لها صحة القرار الذي اتخذته من أول نظرة، عريس هذه المرة في منتصف الخمسينيات، أكبر منها بعشرين عامًا. تاجر قطع غيار بالثانوية العامة، أطلق ضحكة كريهة من فمه الممتلئ «بالجاتوه» وهو يقول:

ـ كلانا يعمل في قطع الغيار، هي تصلح البشر وأنا أصلح السيارات.

تشعر بالإهانة، تتساءل كالعادة، هل أخطأت في اهتمامها بدراستها؟ أصبحت طبيبة مرموقة، حاولت دائمًا أن تكون مصدر فخر لعائلة محدودة العلم والثقافة، لم تسمح لنفسها بالتقرب من أي من زملائها؛ فالعنوان معروف، والطريق الذي كانت تظنه الأقصر، يبدأ بجلسة مع أبويها.

سنوات العمر مرت سريعًا، نجاحها الدائم أفسده عليها تعليقات أمها المريرة، تقارن فشلها بنجاح بنات جارتها جميعًا في الزواج،

أصغر منها كثيرًا، المقارنة ظالمة لها، كلهن تركن التعليم مبكرًا، سيئات السمعة، مبتذلات الملابس، تعددت علاقتهن إلى أن انتهت واحدة بالزواج. ليست مثلهن، تملك جمالًا لا بأس به، ملابسها أنيقة حشمة بغير مبالغة، تعرف جيدًا متى تلم شعرها، ومتى تتركه حرًّا مسدلًا على كتفيها في فتنة ووقار.

تتنهد مخاطبة أمها بعد وصلة التأنيب المعتادة بصوت متهدج:

ـ سأذهب لأتمشى قليلًا.

تعارضها في إصرار، سفاح البنات الذي ظهر مؤخرًا في الضاحية الهادئة يخيف الجميع، تضحك بسخرية:

ـ السفاح الذي لا يقتل؟! اطمئني فليس عندي ما أخاف عليه.

تنظر إلى أبيها في رجاء:

ـ مخنوقة.

تصفع الباب خلفها، وتخرج بخطوات ثقيلة.

تمشي بغير هدى، تنهشها الأفكار، انتهت أحلامها العلمية بحصولها على الدكتوراه، الزواج ليس مهمًّا لها في حد ذاته. تريد أن تحيا مثل باقي الناس، بغير دموع أمها، وتنهيدات الأب وتعليقات الناس السخيفة. حلم الأمومة يراودها، صورتها التي توزع من آن لآخر مثل الجرائد الأسبوعية تشعرها أنها خسرت مع كرامتها كل شيء، في مجتمع يمنح من تأخرت في الزواج لقبًا خاصًّا يطاردها كصحيفة السوابق.

أخذتها قدماها إلى ذلك الشارع المظلم الهادئ، تمشي فيه وحيدة، تتذكر كلمات أمها عن السفاح، تبتسم ساخرة، جروح سطحية على أجساد الضحايا، في مناطق خاصة تكاد تتأكد أنها بلا أي فائدة في حياتها.. يبالغون كثيرًا!

تسمع صوت سيارة تقترب منها ببطء، تسرع خطاها، أضواء السيارة تطفأ، تزيد هي من سرعتها، تمد يدها إلى حقيبتها، تتحسس مقصها الصغير وزجاجة السائل التي أهداها لها أخوها لتستخدمها دفاعًا عن النفس في الطوارئ. تتوقف السيارة، فتقفز لتختبئ خلف الشجرة الكبيرة التي تجاورها، تراقب في أنفاس متلاحقة.

باب السيارة يغلق في هدوء قبل أن تنطلق مسرعة بصرير مسموع، خطوات تقترب منها، تراقب القادم الذي لا يتوقف من موقعها، تراه جيدًا، تخرج الزجاجة من حقيبتها، تقفز فجأة إلى المواجهة لترش في وجه القادمة قبل أن تتبينها، تغطي الفتاة الأخرى عينيها في فزع، وهي تصرخ بصوت يكتمه السعال، تخرج المقص الصغير خادشة به الصدر الذي يكاد يقفز من الفتحة الواسعة، تضيف طعنة غاضبة إلى الأرداف المنتفخة في (البنطلون) الضيق.

تنطلق جارية وعلى شفتيها ابتسامة فيها الكثير من التشفي، وشيء من الراحة.

أدب حديث

انظرْ إليه في غضب.

البداية كانت مع أول زيارة عائلية لهم، عندما سألتها عن رأيها في أمي التي قابلتها للمرة الأولى.

-رِوْشَة طِحِن.

فاجأني رأيها، الكلمة ليست غريبة على أذني، فقد كنت مُدرسًا في الجامعة الأجنبية التي ضمت إليها حديثًا معيدة. أسمع مثل هذه الكلمات كثيرًا، لكن، عندما تفحصت أمي، ترتدي عباءتها السوداء، خمارها داكن، على وجهها الكثير من الوقار، لم أستطع أن أحدد ارتباطها بذلك الوصف.

أبي الذي اقترب من منتصف الستينيات، قضي نصف عمره في واحدة من دول الخليج طبيبًا شهيرًا، سأل حماي العزيز في زيارة أخرى عما يريده منا للشبكة والمهر وما شابه، قاطعته هي مجيبة:

كبَّر يا عمو، مش هتفرق.

أجابها أبي بحيرة: الله أكبر يا بنتي! انفجرت ضحكاتهم جميعًا في آن واحد، أغاظني ذلك، وإن خفّفت عني ابتسامة أبي الهادئة، لا يدرك ما يضحكون عليه، أوضَحَت له ببساطة شديدة:

ـ كبَّر يا عمي، يعني فُكَّكْ من الكلام ده.

ذلك الموقف، تحديدًا، اختصار لحياتي معها. زوجة مثالية، تنتمي لأسرة جمعت العلم والمال، لم أجد فيها أيًّا من الصفات التي يشكو منها الرجال في زوجاتهم، لا مسرفة، ولا طامعة. تعرف جيدًا كيف تدير شئون المنزل بكل اقتدار بالرغم من مشاغلها. مشكلتي الوحيدة معها تنحصر في فجوة لغوية واسعة، تقبلتها أيام الخطبة على أنها جزء من العصر، محاولًا استساغة أن يصبح الإنسان تحفة إذا كان خفيف الظل، وأن الفظاعة من مرادفات شدة الجمال!

بعد زواجنا ورفع الكلفة، ظهر واضحًا أن الأمر يتجاوز حدود اللغة الحديثة، إلى ما علمني والداي أنه «قلة أدب».

زوجتي التي ساعدها تعليمها في أشهر المدارس، وكثرة سفرها إلى الخارج، على الطلاقة في عدد من اللغات، حواري معها غالبًا ما ينتهي بمشاجرة؛ لأنني أتضرر من شيء قالته، تسخر مني:

ـ ما تعش في الدور كده، أغمض عيني متذكرًا حوارات أبويَّ، أدخل إلى غرفتي، أقرأ المزيد من الشعر لأمحو من أذني بقايا كلماتها.

أكثر ما أزعجني بعد أن أصبحت مُلمًّا بمعاني كلماتها، مهارتها في الدمج بين الصفات البشرية المختلفة والحيوانات. السلبية والقوة والسمنة، ترتبط على لسانها بخراف وثيران وعجول، حتى إن كانت تتكلم عن أشخاص نقدرهم.

شجاراتنا لا تختلف كثيرًا، لا تجد عيبًا في وصفي بالخيبة أو الملل، بعد أن نتصالح، تؤكد لي أن تلك الكلمات لا تندرج تحت

بنود السباب. أما وصفها للحياة والمشاكل اليومية، غالبًا ما يكون مرتبطًا بالمشتقات البترولية، مثل: الزفت والقطران والجاز، أو مرتبطًا بالأرض، مثل: الطين.. وأشياء أخرى.

أعترف أنها لا تتخطى حدودها بذكر الآباء أو الأهل، إلا في حالة التساؤل عن أسباب فضول شخص ما، أسمعها متسائلة: هو ماله؟ تضيف أهله عمومًا أو تخص واحدًا منهم حسب درجة غضبها منه.

اليوم، أعطيت لولدي ذي السنوات الخمس اللعبة الجديدة التي اشتريتها له، ألقاها غاضبًا:

- (إيه القرف ده؟ أنا عاوز مسدس).

صدمتي كبيرة، ما كنت أتشاجر كل يوم خوفًا منه حدث بكل أسف، لأول مرة منذ زواجنا أشكو لأبي، أتحدث في غضب عن الطلاق، يأتيني صوته في الهاتف ضاحكًا في سخرية:

- علشان لسانها طويل؟ يبقى المطلقات هَيملوا البلد!

يطلب مني في هدوء أن أجلس معها في وجود أبيها. أطلبه لأحدد معه ميعادًا، أشرح له الأمر باقتضاب.

- يا بني خضتني، بلاش هيافة، دا الكلام بيطلع منها زي السكر.

أُنهي المكالمة في يأس، أحتضن صغيري، أصطحبه لشراء المسدس. في الطريق، أشرح له ما أعرفه من قواعد الأدب.. القديم.

حسن كمال أحد أجمل من يكتبون القصة القصيرة في مصر حاليًا.

بلال فضل - جريدة الشروق

مجموعة قصصية بعنوان «كشري مصر» لقاصٍّ من أبرز كُتَّاب القصة الإدريسيين (إن صحت النسبة إلى المشروع الإبداعي ليوسف إدريس) هو حسن كمال، ونصوص المجموعة التي تقدم مشاهد من الحياة اليومية من القاهرة المعاصرة تنحاز إلى البناء التقليدي للقصة القصيرة، لكنها تستخدم ببراعة متناهية تقنيات المفارقة اللغوية والموقفية لتوليد سيل متواصل من الدهشة، والقصص التي قمت بتدريس بعضها لطلابي بجامعة القاهرة تتسم بالإحكام الشديد في بنائها وتنحاز للغة بالغة الاقتصاد من ناحية، وتروج لمشاعر إنسانية بالغة النبل من ناحية أخرى.

د/ عماد عبد اللطيف - جريدة أخبار الأدب

حسن كمال: تخرج في كلية الطب جامعة القاهرة عام ١٩٩٩، ثم حصل منها على الماجستير والدكتوراه في أمراض الروماتيزم والتأهيل.. يعمل طبيبًا في المركز القومي للبحوث.. أصدر ثلاث مجموعات قصصية: «كشري مصر»، «لدغات عقارب الساعة»، «وكان فرعون طيبًا»، وصدرت له رواية «المرحوم». حصل على جائزة ساقية الصاوي في القصة ثلاث مرات متتالية، ثم على جائزة ساويرس في الأدب عن مجموعته الأولى «كشري مصر».



دار الشروق

www.shorouk.com